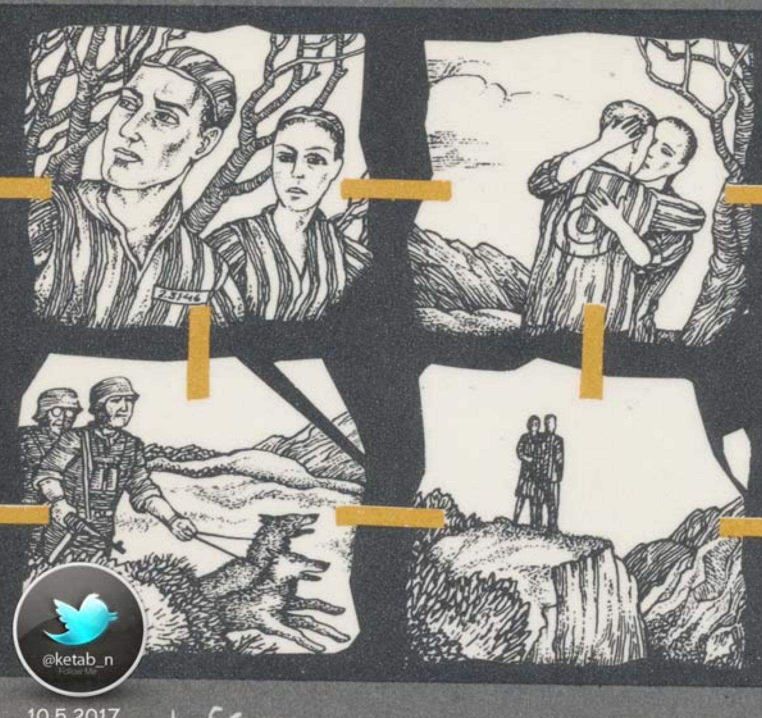
فاسيل بيكوف



انشودة الألب

فاسيل بيكوف

انشودة الألب

قصة



ترجمة غائب طعمة فرمان

ВАСИЛЬ БЫКОВ

АЛЬПИЙСКАЯ БАЛЛАДА

Повесть

На арабском языке

Б $\frac{4702120201-224}{031\ (01)-89}$ 084—89

طبع في الاتحاد السوفيتي

ISBN 5-05-002011-5

- ١ -

تعثر ووقع ، ولكنه نهض على الفور ، بعد ان ادرك بأن عليه أن يهرب ويختفي ما دامت البلبلة حوله أو ربما يتمكن ان يفلت من المصنع . ولكنه لم يكن يرى اى شيء تقريباً في الدوامات العاصفة من الغبار الذي ابتلع الورشة ، وكاد يسقط في الهوة السوداء التي خلفتها قنبلة ، ولكنه تخطاها راكضاً على حافتها . ولكيلا يصطدم بشيء في الغبار مد يدا الى الامام ، وضغط بالاخرى على المسدس ، وتعثر ثانية ، وتدحرج عبر كتلة من الاسمنت اقتلعها الانفجار ، وارتطمت ركبته في ألم . وثب حافي القدمين الآن ، وقد فقد قبقاب المعتقل الخشن فصارت قدماه توجعانه وجعاً لايطاق ، وهو يسير على انقاض الورشة الاسمنتية المتراكمة في فوضى .

من الخلف ترددت صيحات ، ولعلعت صلية رشاشة في الطرف الآخر من المبنى . وقال ايفان لنفسه : «اللعنة !» وقفز على عارضة حديدية مقذوفة من السقف ، ووثب منها الى عمود قاطع

أنهار مائلا . وسار على القاطع الى الاعلى . أخذ الغبار ينقشع بالتدريج ، وقد بددته الريح ، وصار من الممكن أن ينظر . سار على عمود اسمنتي ، وهو يتوازن بذراعيه ، ووجد نفسه عند حافة انقاض الورشة المتراكمة . وأمامه ، وعلى بعد ثلاث خطوات في الاسفل كانت عقبته الاخيرة ، وهي جدار نصف مهدم يكونه السياج ، وابعد من ذلك ، كانت الشوارع غارقة في الخضرة بوداعة ، وكأن اي شيء لم يحدث في العالم السليم ، وسطوح البيوت القرمدية تتوهج تحت الشمس، وعلى مسافة قريبة جداً ، على المنحدر كانت غابة الصنوبر تلوح مناغية .

شمل ايفان كل ذلك بنظرة واحدة ، ودس بين اسنانه مقبض المسدس البلاستيكي ، وقفز . كانت الاسنان الحديدية في مسنن السياج تقتضي تقديراً دقيقاً ، ولكنه استطاع أن يمسكها بيديه ، ويقفز بسرعة الى الجانب الآخر . الا أنه تريث في السقوط ، وهبط على يديه الممدودتين أبعد الى الأسفل ، ثم انقذف . وقع على اشواك عشب صلبة ، توثب، وعاد يمسك بالمسدس ، وانطلق بكل قواه على حقل البطاطس بمحاذاة شبكة الاسلاك الشائكة .

من الخلف لاحقته صيحات ونباح كلاب مبحوح ، ولعلعت صليات في بعض الاماكن ، وصفرت طلقات من بعيد . والظاهر أن المطاردة

قد بدأت ، وأن فرصته تتناقص ، ولكنه لم يكن يستطع التخلي عن نيته التي اصبحت اثمن من حياته ، طفر عبر شبكة السياج ، واندفع بسرعة أشد على نفايات الافران الشائكة في الدرب ، صاعداً الى الأعلى نحو ضاحية المدينة التي لم تعد بعيداً .

ولعل الانفجار في الورشة ارعب الاهالي . فمن البيت الابيض انطلق صبيان على الدرب بكل سرعتهما باتجاه المصنع . وكان الذي في المقدمة يحمل بندقية من لعب الاطفال ، ولكنهما لم يلحظاه وراء الأجمة . قفز ايفان من وراء أجمة الاقاصيا ، وكاد يصطدم بفتاة كانت تحمل مرشة مملوءة بالماء . فصرخت الفتاة ، واسقطت المرشة . تخطاها بسرعة صامتاً ، وطلع من زقاق قصير الى شارع غير معبد يقع في الطرف ، تلفت في الجانبين فرأى الشارع خالياً . عبره ايفان ، شق طريقه خلال اغراس نامية متربة ، فوقع . والى الأمام لم تعد هناك بيوت ، وامتدت مرجة غير محصورة يتخللها الاقحوان المتكاثف ليغطي مساحة واسعة من منحدر ، وعند الطريق كانت تتمايل جدائل عشب لايراه . وابعد من ذلك ، الى الأعلى في الشعاب كانت تبدأ غابة ، وفوقها تتكتل جبال الألب الضخمة يمامية اللون في سماء تموز القائظة .

تسمع ايفان حابساً أنفاسه . بلغت سمعه

من الخلف صيحات وطلقات ، ونباح كلاب بوليسية ولكن هذا كان هناك ، في المصنع ، ولم يعد أحداً يطارده ، كما يبدو . مسح من وجهه بكم سترته المخططة العرق المتساقط على عينيه ، ورفع جسمه قليلا محدداً اقصر طريق الى فوق . على مسافة غير بعيدة توجد وهدة اقرب من تلك الوديان التي تدنو من المدينة ، والى هناك كانت تنحدر من فوق المنحدر الشديد اشجار شوح متباعدة ، قفز ايفان على رجليه من جديد .

وجد صعوبة لعينة في الصعود طوال الوقت في المرتفع . وصار جسمه ثقيلا بشكل بالغ ، ورجلاه تنثنيان من التعب . في وسط المرتفع التفت من جديد . يبدو أن نباح الكلاب يأتي الآن من طرف المدينة . ازت صلية قريبة ، ولكنه لم يسمع الرصاص ، ومعنى ذلك أن الاطلاق ما يزال غير موجه اليه – بل الى آخرين ! يبدو انهم تراكضوا متفرقين هناك . وكان هذا يخفف من وضعه . كان يجب الاسراع .

ولكن قواه كانت تستنزف ، وكان يجد صعوبة في تسلق الربوة . ومن الخلف كانت المدينة كلها تلوح ، وكأنها على راحة يد ، وكانت مباني المصنع الطويلة كحظائر الطائرات تحتل الجزء الامامي منها ، وهنا وهناك كان الحطام يتناثر مسوداً ، هو آثار جديدة للقصف .

كان السياج الطويل قد أنهار في أحد المواضع، وبرزت من وراء الفتحة الروافد المشوهة للحظائر. وذلك من أثر قنبلتهم . وهناك تراكض الناس مضطربين . انحنى ايفان (أخذت الربوة تخفيه) فركض واهناً نحو الجدول، وبعد ان اجتازه رفع هامته أخيراً متنفساً الصعداء . كانت الغابة قريبة ، على المنحدر .

ابطأ ايفان خطوه ، مسح وجهه بكمه . كان الطريق بعد هذه البقعة يمتد في قاع واد عريض معشوشب . والارتفاع صار اكثر حدة ، والجدول يهدر بصخب بين الصخور السوداء الزلقة . واخيراً وصل ايفان منهوكاً الى أشجار الشوح الأولى المبعثرة على المنحدر ، وعند ذاك سمع نباح الكلاب من جديد . وتبين أنها وراء الربوة ، على مسافة قريبة ، فراح يصعد في المرتفع راكضاً ، مستنزفاً قواه من جديد . على الاقل لو بلغ غابة الشوح ، حيث الاختفاء اسهل ، فيخدع مطارديه على نحو ما ، واذا لم يكتب له الافلات ، فلن يكون موته عبثاً .

ولكن الوقت لم يتسن لايفان ليصل الى الغابة .

صعد على العشب الى فوق متخطياً قطع صخور كبيرة وصغيرة ، والحصى المتناثر في كل مكان ، وكاد يصل حافة الغابة ، حين أرتفع نباح كلب على مسافة قريبة جداً من الخلف، وكأنما

طلع من وراء الربوة . هرع ايفان الى شجرة شوح فتية ، واختبأ ، ونظر من خلال الاغصان . كان كلب من الكلاب البوليسية ينطلق على آثاره خلال الربوة ، وظهره الداكن يلمع في العشب .

أدرك أن الوقت لا يكفيه لبلوغ الغابة . باعد بين ساقيه اكثر ، وضغط يده على المسدس بقوة أشد . كان لايعرف كم رصاصة في المسدس ، فقد كان الوقت متأخراً للتأكد من ذلك ، رغم أنه كان يفهم أن نجاته متوقفة على الطلقات . ارخى عضلاته للحظة محاولا أن يتنفس على نحو اكثر انتظاماً . وكان يجب أن يهدأ ، ويستجمع قواه ، ويهدىء قلبه في صدره، ليصوب دون أن يخطأ .

ابصره الكلب ، فاشتد نباحه واهتاج ، واندفع الى فوق منقذفاً في عدو متقارب. انحنى ايفان وهو واقف وراء الشجرة ، وقاس ببصره حداً يبعد نحو خمسين خطوة قرب نتوء حجري في العشب ، وصوب المسدس الى هناك . كان الكلب يقترب بسرعة ، واذناه ملتصقتان برأسه، وذيله منتصب ، وصار ايفان يرى شدقه الفاغر ، بلسانه الدالع ، وانيابه البارزة الكاسرة . حبس ايفان أنفاسه ، ووتر جسمه محاولا أن يحكم التسديد على أحسن ما يستطيع ، وتقدم منه نحو خمسين خطوة واطلق النار . فهم على الفور أنه قد اخطأ التصويب . اذ ان ماسورة المسدس

قد اهتزت الى فوق وصدمت أنفه رائحة بارود محترق . اشتد نباح الكلب ، فاطلق ايفان رصاصة أخرى بعجالة ، وكيفما اتفق ، وبدون تسديد . وخفقت في قلبه فرحة قصيرة على الفور ، فقد ولول الكلب باستماتة ، وتقلب ، وارتطم بالأرض، وأخذ يختلج على بعد حوالي عشرين خطوة منه ، ويرتعص في العشب . وكان ايفان على وشك ان ينطلق الى الغابة الا أنه في تلك اللحظة رأى كلب ذئاب ضخماً له رصعات صهباء على الجانبين يقفز من وراء الحجارة لاهثاً ، ووراءه كان مقوده الجلدي الطويل ينسحب متشربكاً في العشب .

شهر ايفان مسدسه نحوه على عجل ، ودون تسديد ولكن الرصاصة لم تنطلق ، والظاهر أنها أعيقت بشيء . ولم يتسن لايفان الوقت لحشو المسدس من جديد ، واكتفى بان ضرب براحته على لوحة الترباس ، الا أن الكلب كان على قربه ، وقفز . أرتد ايفان الى ما وراء الشجرة ، والكلب اصطدم بالاغصان ، ومر منطلقاً ، كأنه تقلب في الهواء ، قبل أن يصل الى الارض ، وهجم من جديد فاتحاً شدقيه . مد ايفان ذراعيه للقائه ، وهو لا يعرف كيف يدافع عن نفسه .

كانت قفزة دقيقة وقوية . سقط المسدس من يد ايفان ، ولم يصمد ايفان على رجليه

فتدحرج مع الكلب على المنحدر . وبدا وكأن كل شيء سينتهي عاجلا ، ولكن ايفان لحق ، وهو يسقط ، أن يمسك الطوق في رقبة الكلب ، وابعده عنه بجهد يديه الحديدي . انشب الكلب اظفاره بقوة ، فصدر صوت تمزق ثياب . استطاع ايفان الامساك بكراع الكلب الامامية بيد ، وقد ضغط باليد الاخرى على طوق رقبته ولواه بقوة . وتقلب أحدهما على الاخر ، مرة أخرى لاهثي الانفاس في الصراع ، وبعد ذلك ألقى ايفان رجليه جانباً لكي يبقى الى فوق على نحو ما ، محاولا ان يسحق الكلب تحته ، حتى افلح في ذلك اخيراً ، فضغط على الكلب بكل جسده ، وأخذ يخنقه . ولكن الكلب كان قوياً جداً . وأدرك ايفان فجأة أنه لن يتحمل ذلك طويلا . وعند ذاك تحايل ، ودفعه بركبته بآخر جهد . ولول الكلب ، وارتعد بحدة ، حتى كاد ينتزع الطوق من يد ايفان . واحس ايفان وكأن شيئاً قرقش تحت ركبته ، فشد الطوق بشكل اضيق مجهداً اصابعه ، ولكن قواه لم تكفه لخنق الكلب ، وافلت الكلب باستماتة ، وانزلق من بين يديه .

انكمش ايفان في انتظار قفزة جديدة ، ولكن الكلب لم يقفز . انبطح على مقربة ماداً بوزه الممتلىء ولسانه مطروح جانباً ، وراح يتنفس أنفاساً متلاحقة قوية ناظراً الى الرجل نظرة

حاقدة . كان الطوق قد حز كفي ايفان ، فصارتا تلتهبان لهباً حارقاً ، وكانت عضلة الساعد ترتعد بعصبية متوترة ، وقلبه يكاد يطفر من صدره . ألقى ذراعيه المرتجفين على العشب ، ووقف على ركبتيه ، ينظر الى الكلب بعينين شبه متوحشتين.

كان احدهما يراقب الآخر ، خائفاً ان يغفل محاولة غريمه الأولى للوثوب ، وفي ذات الوقت كان ايفان يخاف ظهور الألمان . وبعد دقيقة أدرك أن كلب الذئاب يستبعد أن يكون أول من يثب . وعند ذاك نهض على قدميه ، وتراجع ناحية ، والتقط حجراً من العشب . وهم بأن يضرب الكلب به ، ولكنه غير فكره في الحال . قوس كلب الذئاب ظهره بتشنج ، والظاهر أن ما اصابه لا يقل عما اصاب الرجل ، هر الكلب بعجز وهدوء . تراجع ايفان بضع خطوات حذرة الى الوراء . فرفع الكلب جسمه قليلا ، وتحرك قليلا ايضاً ، وانزلق مقوده على العشب ، ولكنه لم يثب . تجرأ ايفان اكثر ، وأخذ يركض بتعب ، الى شجرة الشوح في الاعلى ، حيث أسقط المسدس .

ولول الكلب في ضراوة عاجزة ، وزحف قليلا على العشب ، وتوقف . أما الرجل فقد رفع مسدسه «البراونينغ» من العشب ، وراح يركض ببطء ولهاث وبقدر ما تسعفه قواه في الوادي باتجاه غابة الشوح في الاعلى .

بعد حوالي خمس دقائق كان في الغابة ، فركض بمحاذاة جدول سريع الجريان صافي الماء الى حد غير اعتيادي . كان المنحدر مغطى بغابة نظيفة لا تتخللها الاغصان الساقطة . الا أن الحجارة كانت تعيق ركضه ، والمرتفع يزداد حدة . خاض ايفان في الجدول خوفاً من مطاردة جديدة ، وليعمي آثاره عن الكلاب ، ولكن الماء لذع قدميه ببرودة الجليد ، فقفز الى الشاطىء ، بعد أن قطع زهاء عشر خطوات . راح يتسلق المرتفع الصخري الحاد ، وتوقف لحظة ليعيد شحن مسدسه . قذف الترباس ألطلقة المحشورة على الاحجار . أنحنى ايفان ليلتقطها ، ولكنه جمد فجأة . فقد سمع من الخلف أصواتاً تترامى من خلال خرير الجدول الراغي . ترك الطلقة ، واندفع الى فوق بعجالة منحرفاً قليلا عن الجدول ، وزحف خلال غابة اشجار الشوح الفتية ، لايكاد يلتقط انفاسه ، ودب على الاربع .

هبت الريح ، وطلعت في السماء من وراء الجبال حاشية شعثاء من السحب . والظاهر أن المطر مقبل . أجال ايفان بصره ، بعد ان ألقى نظرة على الصخور تحت اشجار الشوح . في الاسفل لايبدو أن أحداً على مرأى . وهم بأن

يثب على قدميه ، ويركض ، واذا بسمعه يلتقط صيحة ملحاحة مكتومة قليلا :

— روسو !

طوى جذعه اكثر ، وسحب رأسه بين كتفيه. اغلب الظن أن القائل لم يكن ألمانياً ، بل معتقلا ألمانياً . ولكنه في هذا الموقف لا يستطيع التأكد حتى من نجاته هو . وكان يعرف من تجربته الخاصة كم من الصعب ان يهرب وستزداد الصعوبات اذا أخذ معه رجلا منهوك القوى . والألمان لابد أن اعلنوا حالة الانذار والافلات ليس بالأمر الهين .

واصل الركض باقصى ما يستطيع صاعداً بين الصخور وأشجار الشوح الى فوق بانحراف المرتفع الجبلي المشجر ، لأن الصعود في خط مستقيم لايناسب قواه . بقي الجدول في ناحية ، وهدأ خريره ، وصارت اشجار الشوح تحف حفيفاً متزايداً في وضوحه وشدته ، وكانت الريح الطرية تهز ذرى الأشجار ملحاحة ، واختفت الشمس ، حجبت سحابة داكنة السماء الآخذة بالعتمة وراحت تتسع اكثر فأكثر . كان الهواء موغراً ، وقد تشبعت سترة ايفان بالعرق عند الظهر . وكان ايفان قد فقد طاقيته المخططة منذ الانفجار ، فكان يمسح وجهه الآن بكميه ، متطلعاً الى الجانبين طوال الوقت ، ويرهف سمعه . ذات مرة سمع هدير موتسيكلات بعيداً

لمايزل ، ولكنه راح يتنامى بسرعة . في مكان ما هنا كان يمتد طريق ، والظاهر أن الألمان أرسلوا من يطاردونه . استولى على ايفان هاجس كئيب ، فراح يفكر بجهد فيما ينبغي ان يفعله بعد الآن ، وفي ذات الوقت حدس من صوت مبهم أن شخصاً يركض خلفه . قفز الى ماوراء جذع شوح مغطى بالأشنة ، وسحب زناد الأمان في مسدسه . اقترب هدير الموتسيكلات : «السفلة يحدقون !» والتفت ايفان الى الوراء ، وهبط على ركبة واحدة وراء شجرة الشوح ، ورفع المسدس الذي كان يشد عليه قبضته . في الاسفل تردد من جديد الطرق المكتوم على الصخور . أمعن ايفان النظر ، وحدد بوضوح المكان الذي كان فيه الشخص بين الشجيرات. في البداية لم يظهر أحد من هناك ، ثم أخذت الاغصان تهتز ، وطلع من اشجار شوح شخص مخطط خفيف ولاح في فرجة خالية من الاشجار ، وألقى نظرة على المنحدر :

– روسو !

أ هي امرأة ؟! يالها من مفاجأة ! وكاد يشتم من الاغاظة ، ولكن هدير الموتسيكلات المقترب حول انتباهه . دار ايفان على الارض غير عارف الى اين يتوجه ، فقد كان من السهل أن يشاهد من فوق بين الاشجار المتباعدة . فقفز الى تجويف غير عميق تحت صخرة حادة الرأس ، متوتراً

بكليته متهيئاً لصد الهجوم . أختفى الشخص المخطط لحظة وراء حافة حيد . الآن لم يعد ايفان ينظر الى هناك ، بل يتسمع بارهاف ، متوجساً من الموتسيكلات اكثر من اي شيء آخر . ولكن شبح المرأة طلع مرة أخرى من وراء صخرة على بعد عشرين خطوة تقريباً في الاسفل ، كانت ترتدي سترة طويلة لاتناسب طول قامتها مطوية الردنين ، وعلى صدرها مثلث أحمر . كانت فتاة في مقتبل العمر ، تلفتت في الجانبين بسرعة ، ولحظ عينيها السوداوين كحبتين من الزيتون تلمع بفرح غامر تحت قبعة شعرها الأسود سواد عينيها .

– تشاو !

سمع هذه الكلمة ، وبها كان دائماً يسلم المعتقلون الايطاليون . الا أنه الآن ، وهو يتسمع الى الهدير فوق رأسه انكمش ، وصمت ، متوقعاً أنها ستلوذ بين لحظة وأخرى في مخبأ ما . ولكنها بدت لاتبالي نهائياً في الاخطار ، تلفتت من جديد، وتكلمت بالالمانية بعجالة ، وكأنما تطرد شخصاً عنها ، كما بدا له . ألقى ايفان نظرة الى الحرش. فرأى وراء الاحجار شخصاً آخر في ثياب مخططة اختفى رأساً في الخمائل بعد صيحة الفتاة مباشرة. اراد ايفان الابتعاد عن هذه الرفقة غير المطلوبة ، الا أن الفتاة قفزت بخفة من وراء النتوء، وأنحنت، ودست قدميها في القبقابين اللذين كانت حتى

الآن تمسكهما في يديها ، وراحت تطقطق بهما ، وركضت نحوه مسرعة .

كانت الموتسيكلات تهدر فوق رأسيهما تقريباً . فأثارت جسارة الفتاة هذه الغيظ في نفس ايفان ، فقد كان من السهل ملاحظتهما . سار ايفان نحو الفتاة محني القامة ، وجذبها من يدها بقوة تحت صخرة ، شاتماً في ذات الوقت بخفوت وبغيظ لايكبح . اندفعت الفتاة وراءه ، بخفة ، وإذا بفردة قبقابها تقع من قدمها ، وترتطم بالصخور ، وتنقذف بعيداً في ناحية .

هتفت الفتاة بصوت مكتوم :

— اوي ، كلومبس !

مرت الموتسيكلات منطلقة واحد تلو الآخر على مسافة قريبة منهما غامرة اياهما بهديرها . ولكن الفتاة انتزعت يدها منه ، وكأنما لاتبالي بالموتسيكلات ، واندفعت لتلتقط قبقابها . لم يلحق ايفان ان يوقفها ، وضرب بجمعه على صخرة ، وصرف باسنانه . وخلال ذلك التقطت الفتاة قبقابها واندفعت عائدة. وعندما قابلته بنظرة تبرق طائشة ، صفعها على وجهها في غيظ .

لذعت الصفعة خدها . فارسلت صيحة مقتضبة ، ولكنها لم تجفل ، ولم تبتعد راكضة ، بل سقطت تحت الصخرة الى جانبه ، ورمقته من تحت مرفقها بنظرة لا يتجسد فيها الغيظ بقدر ما تتجسد الدهشة اللعوب .

كان هدير الموتسيكلات يبتعد ، وأسف ايفان على أنه لم يضبط نفسه . غرقت الفتاة في افكارها لحظة ، وتدورت عيناها ، وراحت تتسمع، والظاهر أنها الآن فقط ادركت ماكان يهددهما ، فرفعت قليلا ساقها في سروالها المخطط المتسخ ، ووضعت قدمها في القبقاب . وبعد ذلك نظرت اليه مرة أخرى ، وكررت شتيمته ناطقة كلماتها بركاكة طفولية ، وكأنما تتعلم الكلام .

وكان ذلك مفاجئاً كصفعته ، وغير مألوف حتى أن شيئاً ما تحرك في داخله ، تحول عن مكانه . فقد غمر نفسه المتصلبة شيء انساني ، ففتح عينيه بدهشة وسعة لأول مرة خلال هذا اليوم .

– ياه !

– ياه !

كررت الفتاة ، وكأنما تناكده ، فاضحة بذلك اساءتها المتعمدة ، ولأول مرة نظرت اليه بفضول ظاهر . كانت شفتاها الممتلئتان مزمومتين بنزق، ولكن عينيها شعتا بعفاريت ضاحكة مشاكسة على وشك أن تطفر منهما . وبدا وكأنه قد رأى في مكان ما هاتين العينين غير المفهومتين في وجه أسمر ناحل كثيراً . قطب حاجبيه ، بعد أن شعر بشيء جديد يطل على نفسه . فقد خذله تماماً جمال الفتاة الخارق ، وجسارتها غير الاعتيادية في وضعهما هذا الاكثر من معقد .

سألها بحدة ناظراً الى قدميها المضغوطين في قبقاب الاعتقال الخشن .

– الى اين تركضين ؟

– انتم ؟

– انتم ! انتم ! الى أين تركضين ؟

–روسو يركض ، أنا يركض .

لم يتحمل فحدجها بنظرة حقودة . كان وجهها المتحفز كله بتقاطيعه الرقيقة ينطق بالرغبة في أن تفهمه . كان حاجباها الاسودان الكثيفان المعقودان على منبت أنفها مرفوعين الى الاعلى .

– تعرفين الى اين اركض؟ في بلاد الروس أركض . واذا مسكوني يطلقون علي النار . أما انت فلك هذا – ومرر اصبعه على رقبته ، وأومأ الى فوق . وتلك اشارة بليغة أممية لنزلاء المعتقلات .

فهمت ، وابتسمت ابتسامة مقتضبة ، بل وخيل اليه أنها أرسلت صوت استهانة ، وكأنما تقول : لا يهمني حبل المشنقة ! وهذه الاستهانة الطائشة اغضبته من جديد .

– شجاعة! طيب، اركضي! ولكن بلاحماقات. أنا لا اصلح لان اكون معيناً لك .

– طابعن !

وابتسست الفتاة بلطف ، وظن ايفان أنها لم تفهمه .

حاول الاعتراض ، ولكن طلقات وصيحات

ونباح كلاب ترددت في تلك اللحظة من ناحية المدينة . وفكر ايفان مع نفسه : «فلتذهب الى جهنم ، هذه الفتاة» لقد كان عليه أن يواصل طريقه ، فزحف على المرتفع بسرعة .

- ٣ -

حجبت السماء سحابة يمامية ، واهتزت ذرى أشجار الشوح منذرة ، وضجت الغابة مضطربة ، وخططت قطرات المطر الاولى الهواء بين الاشجار بخطوط مائلة .

انسل ايفان بين جذوع الأشجار والصخور بخفة ودون أن يقلل من سرعته ، وركبته تلمع عارية . الآن فقد لاحظ سرواله الذي مزقه الكلب، والدم على قدمه والظاهر أن الجرح قد يبس قليلا ، حين كان واقفاً تحت الصخرة ، وأنفتح عند سيره ، وهو الآن ينزف . كانت اصابع قدميه تنزف وقد جرحتها الصخور . ونفذت شوكة في كعبه ، فأخذ يقزل بشكل ملحوظ .

والى الخلف منه سكن كل شيء ، ولم تعد تسمع اصوات مطاردة . ولكنها لابد أن تظهر. لقد كان ايفان يعرف أن الألمان لن يتركوا الهاربين بسلام . والظاهر أنهم استنفروا الحراس والشرطة . وكان من الصعب جداً اللواذ بالفرار . الا اذا اسعفه المطر ، واخفاه ، وكتم

وقع خطاه ، ومحا آثاره . تحسس ايفان الاجمات المحيطة به بنظرة حادة قلقة ، خائفاً أن يقع في كمين . ومن حين لآخر كان يسمع وراء ظهره خطوات مرافقته العجلى ، لم تكن تتأخر عنه . الا أن القبقاب الذي سمته «كلومبس» كان يفلت من قدميها أحيانا، فتتأخر دقيقة ، ولكنها بعد ذلك كانت تلحق به راكضة ، وتسير الى جانبه . وفي تلك اللحظات كان يسمع انفاسها القريبة المتلاحقة .

حاول ايفان ألا يكترث بها . ولو تخلفت تماماً ، لتنفس الصعداء ، ربما ، ولكنها طوال ما كانت الى جانبه ، كان غير قادر على طردها ، ليهرب لوحده . كان يفكر فقط من اين بعث بها سوء الحظ اليه ، وكيف افلتت من المصنع ، ولحقت به . كان يصعد في المرتفع بسرعة ، الا أنها لم تكن تتأخر، صحيح أنه ضيع وقتاً غير قليل في مصارعة الكلاب ، ومن حسن الحظ أن الالمان تأخروا ، ولم يصلوا في تلك اللحظة.

وفي غضون ذلك اشتد المطر ، واحكم الضباب الدافيء دثاره على المنحدرات الشجراء. وكان هذا يسر الهاربين ، لان الطقس الماطر يسهل الاختفاء في الغابة ، والابتعاد عن المدينة اكثر .

سوى أن السير في المطر لم يكن مريحاً جداً . فقد كانت سترة ايفان المبللة تماماً

تلتصق بجسده بازعاج ، كما أن سرواله تبلل من الاسفل ، فطواه حتي الركبتين ، كما كان يفعل عند حش العشب . ولحظ برضى أن ثيابه المخططة التي كانت ترى من بعيد قد عتمت من المطر . سوى أن العلامات الدائرية اللعينة المطلية بصبغ زيتي ماتزال بارزة على الصدر . لم يصبها البلل ، وصارت اكثر وضوحاً على السترة الداكنة .

مرت ساعة او ربما اكثر على هذا المنوال. وفجأة رأى ايفان الطريق ، بينما كان ينسل خلال أجمة فتية مبللة يتخلل اغصانها نسيج العنكبوت . كان شريط الطريق الاسمنتي الصقيل اللامع بفعل المطر ينحني بانسياب في منعطف ، ويختفي الى فوق . توقف ايفان ، وتسمع . يبدو أن الطريق خال . عند ذاك نظر الى الوراء . كانت الفتاة تشق طريقها اليه مزيحة عن وجهها الاغصان الرطبة بفارغ الصبر . كان عليه ، كما يبدو ، أن ينتظرها وأن يقطع الطريق معها والا فقد تفعل شيئاً غير مناسب ، فتكشف عنهما كليهما .

تقدمت الفتاة ، وتوقفت الى جانبه متعبة ، ولما رأت الطريق صارت تنظر الى المخاطر اكثر توجساً من قبل حين . مرر ايفان نظرة مقتضبة على سترتها المبللة التي كانت تلتصق تماماً على قوامها اللدن الرقيق ، وعقد حاجبيه

في ضيق مرة آخرى . فان كل ذلك لم يكن يناسب الوضع الذي كانا فيه . أما هي فقد سرت على ما يبدو بهذه الدقيقة من التريث . التقطت انفاسها قليلا ، وامسكت جذع صنوبرة بيد ، وسكبت بالأخرى الماء الذي تجمع في قبقابها ، وزفرت تعباً .

انتظر ايفان قليلا حتى استرجعت الفتاة انفاسها ، وبعد ذلك تابع طريقه ، وسارت الفتاة وراءه بحذر .

تلفت من جديد قرب الطريق ، ودنا من ساقية الطريق الاسمنتية ، وتوقف ، وهمس للفتاة : «تعالي!» ومد لها يده . امسكت اصابعه دون أن تفوه بكلمة ، وعبرت الساقية فارسل قبقابها الخشبي طرقاً اصم لدى ارتطامه بالاسمنت . اوعز ايفان باقتضاب: «اخلعيه ! » خلعت الفتاة «الكلومبس» طائعة ، والتقطته بيدها الطليقة. وطلع الاثنان متماسكين بالايدي راكضين على بلاطات الطريق الاسمنتية المبللة . كان المطر الآن ينزل متلاحقاً ، فيمحو آثار خطواتهما فوراً . انتقل الهاربان الى الجانب الآخر من الطريق بسلام . وترك يدها . ووراء الساقية واصابت الفتاة قدمها بكسرة حجر ، فارسلت آهة خفيفة ، ثم حشرت قدميها في القبقاب ، وصعدت وراءه على المرتفع بسرعة .

كان المرتفع حاداً ، له اجرف عمودية نمت

باشجار هزيلة معوجة من خلال اعاليها يلوح قوس الطريق اللامع في الاسفل . لم يعد ايفان الآن يجاهد كثيراً للاحتفاظ بوتيرة سيره . فقد تعب، كما أن الفتاة –وكان يشعر بذلك – كانت أيضاً في وشل قواها القليلة جداً ، كما يبدو . توقف ايفان على مرتفع حاد كان أول من وصل اليه مغالباً تعبه ، وراح يراقب من تحت شجرة صنوبر فرعاء ريانة ، صاحبته وهي تصعد الى فوق . كانت فردة من قبقابها قد افلتت من قدمها ، وتدحرجت على الصخور بسرعة الى الاسفل . صاحت ذاهلة اللب: «سانتا مادونا ! » والتفتت ، وجلست متعبة ، غير عازمة من كل الدلائل على النزول لتلتقطها . ومع ذلك سرعان ما نزلت قازلة على قدم واحدة ، والتقطت فردة القبقاب ، ونظرت الى ايفان من الاسفل . وفي نظرتها دفء امتنان صامت على انه لم يواصل السير بدونها . حط ايفان بهدوء على بقعة جافة شائكة بين جذور متلوية ، وانتظر صعود الفتاة من تحت الحدور . وحين وصلت اليه سقطت الى جانبه باعياء .

قال لها وهو يعني القبقاب:

– اتركيه الى جهنم!

رفعت اليه عينيها السوداوين الواسعتين . فأشار الى قبقابها ، ولوح بيده ، يريد أن يقول لها : ارميه . والظاهر أنها فهمت ، فهزت رأسها

معترضة وحركت في ذات الوقت قدمها المبللة الصغيرة التي بدت له رقيقة جداً . فادرك رأساً سخف نصيحته ، مثلما ادرك الانزعاج غير القليل الذي يسببه لها هذا القبقاب الواسع جداً على قدميها .

ثم أن قدميه المقرحتين بالصخور والاغصان الساقطة كانتا تلتهبان وتلذعان . وكان كعبه الايسر يوجعه عند المشي بشكل خاص . والآن، وهو يمدد فترة استرداد الانفاس لا ارادياً، قرر أن ينظر ماذا في كعبه . ضغط قدمه بكلتا يديه، ونظر الى باطن قدمه الرطب. وفجأة قالت خالطة الايطالية بالالمانية :

— روسو جداً ، فوريوزيو جداً ، كيف بالدويتش ، بيوزه * .

وكان ايفان في السنة التي قضاها في الاسر تعلم الالمانية قليلا ، وفهم ما قالته الفتاة ، ولكن لم يرد رأساً . رأى في كعبه شظية حاول أن يخرجها ، ولكنه لم يستطع أن يمسك برأسها الصغير باصابعه مهما حاول .

— بيوزه ! حين يزعجك فتنزعج ! — دمدم غاضباً ، ثم أضاف اكثر طيبة — ولكنني على العموم غوت .

---

* لفظتان ألمانية (بيوزه) وايطالية (فوريوزيو) ، تعني مغتاظ او غضبان.

- غوت ؟

وابتسمت ابتسامة خفيفة ، ومسدت شعرها المبلل اللامع بكلتا يديها ، ومسحت كفيها بسروالها ، ودنت منه :

- أو ، هات !

لم تستطع مهما حاولت أن تمسك برأس الشظية ، ولكنها امسكت باطن قدمه الكبير باصابعها الرقيقة الباردة بخفة وبساطة مدهشة، ونكشت هناك ، واحنت رأسها ، عضت باسنانها باطن قدمه حتى اوجعته . سحب قدمه متردداً ، ولكنها امسكت بها ، وتحسست رأس الشظية ، وحين رفعت رأسها كانت الشظية الصغيرة تبرز بين اسنانها المنظومة .

لم يبد ايفان دهشة ، ولم يشكرها ، بل سحب قدمه ، ونظر الى كعبه ، ومسحه ، وجرب أن يدوس عليه ، بدا له ذلك اخف . عند ذاك نظر بامتنان اكثر من أي وقت الى الفتاة والى وجهها الاسمر المبلل الحلو . لم تصرف الفتاة نظرتها البسامة ، وتناولت الشظية باصابعها من بين اسنانها ، وألقتها في الريح .

- حاذقة ، نعم . - قال ايفان بتحفظ ، وكأنما يعترف بافضالها مكرهاً .

- هازقة - كررت بلكنتها ، وسألت : - هازقة ما معنى ؟

ولعله لاول مرة في هذا اليوم ابتسم . شعث

باصابعه الخمس شعر قفاه المقصوص المبلل .
- كيف اقول لك ؟ عموماً ، يعنيَ غوت .
- غوت ؟
- أنا غوت .
- دو غوت ، ايخ غوت * - قالت بفرح ، وضحكت . فنظر اليها نظرة اطول من ذي قبل ، وكأنما يتذكر شيئاً ، أو يزنها . فلملمت نفسها رأساً ، وهزت كتفيها ، وعند ذاك فكر في أن عليهما متابعة السير . لم يحب أن يغادر مظلة هذه الشجرة الصنوبرية الجافة الفرعاء ، ومع ذلك فقد اضطر الى النهوض . ما يزال المطر ينزل ، والغابة تضج ضجيجاً رتيباً مضجراً ، والظاهر أن سوء الطقس قطع الملاحقة . ولا أحد يعرف كم من المعتقلين هربوا الى الجبال ولكن ربما افلح بعضهم في الافلات . وتذكر ايفان المعتقل الالماني الثالث الذي جرى وراءهما ، وقبل أن يخرج من تحت الشجرة التفت الى الفتاة التي كانت تنفض ما علق في قبقابها .
- ومن ذاك الذي ركض وراءك :
- راكض ، يعني ؟ هيناك ؟ موعتقل الماني.
- تعرفينه ؟ رفيقك ؟
- لا رفيقي . اسمه كرانك . مريض . - ومست صدغها باصبعها النحيلة .

---

* أنت طيب وأنا طيبة . (بالالمانية) .

– يعني ، مجنون ؟
– نعم ، نعم .
«تصور ، يمكن أن تتحدث معها !» فكر ايفان برضى ، واشاح ببصره جانباً . ولسبب لايعرفه ظل يشعر بالحراجة من النظر في عينيها السوداوين العميقتين المتسعتين اللتين كانتا تعبران عن مشاعر مختلفة بشكل متقلب .
– طيب ، ليذهب الى حيث . هيا .
يبدو أنهما ابتعدا عن المعسكر مسافة معتبرة . والظاهر أن الالمان تركوهما وشأنهما. وزال التوتر النفسي ، ولاول مرة ، وكأنما من بعيد ، أعاد ايفان في ذهنه ما حدث في ذلك اليوم المضني بشكل جهنمي .

– ٤ –

كان خمسة من أسرى الحرب ينقبون منذ الصباح عن قنبلة لم تنفجر في الورشة شبه المهدمة اثناء غارة ليلية .
ولم يكن قد بقي لديهم أضأل أمل في أن يبقوا احياء في مجمع الموت المريع هذا ، فقرروا هذا اليوم أن يحاولوا للمرة الاخيرة ان يفلتوا من الأسر ، واذا كتب لهم أن يغادروا هذا العالم تركوا عليه بصمات اصابعهم ، على حد تعبير الاسير الداكن السمرة الحاد اللسان المكنى بـ «جوك» (الخنفس) .

كان عملهم الصعب المحفوف بالخطر يقترب من نهايته .

اخرجوا القنبلة اخيراً من الانقاض ، رافعين اياها على العتلات ، ووضعوها في قاع حفرة في حذر ممسكين بموازنها المعكوف . وأعقب ذلك أخطر وأهم عمل . وبينما كان الآخرون يحبسون انفاسهم قابعين في الزوايا ، وضع المعتقل غولوداي بحار البحر الاسود السابق ، الطويل الذراعين في سترته المخططة والشارات الملونة على الصدر (وعلى الظهر)، مثل الآخرين جميعاً، المفتاح على مسمار التفجير، وضغط عليه بكل جسمه .

وانتفخت عروق ذراعيه العضليتين العاريتين حتى المرفقين ، وبرزت عروق الرقبة ، واستجاب مسمار التفجير قليلا . أدار غولوداي المفتاح بجهد مرتين أخريين ، ثم جلس القرفصاء ، وأخذ يلوي مسمار التفجير بيديه . وكان المسمار قد تشوه كثيراً لدى اصطدامه بالأرض : فكان معطوباً بالطبع ، ولم يكن يصلح بهذه الحال ليفجر القنبلة التي ألقيت ليلة أمس من الطائرة الامريكية ب ٢٩ أو الطائرة الانـجليزية «موسكيتو» على هذه المدينة الـنمساوية المحصورة بين جبال الألب . ولكن القنبلة نفسها كانت صالحة ، وما تزال تحتفظ بخمسمائة كيلوغرام من التروتيل . وعلى هذا كان يعول هؤلاء الخمسة المحكومون بالموت . ما ان انفكت

فتحة القنبلة حتى اخرج جوك من تحت سترته مسمار تفجير جديداً أخذه من قنبلة عاطلة كسر موازنها ، وأخذ باصابعه النحيلة العصبية يشده مكان المسمار السابق .

كان مستعجلا ، فلم يستطع أن يدخل المسمار في موضعه فصار الحديد يرن ، وخوفاً من أن ينكشف أمرهم ، رفع ايفان هامته ، وأطل من الحفرة .

لا أحد حولهم ، على ما يبدو . وفوقهم تتدلى عوارض معكوفة . وكانت حزم ضوء داخنة تهبط مائلة على الأرض من الثغرات العديدة في السقف. وكان الجو خانقاً متربا . ووراء صف الدعائم الاسمنتية وسط الورشة ، وفي الغبار المضاء بالشمس كان عشرات الرجال يتحركون رواحاً ومجيئاً ينقلون الانقاض ويزيحون الحطام لاتصدر منهم إلا احيانا هتافات وطنين مكتوم . وكان هناك ايضاً رجال الـ«اس‌اس» الذين كانوا يفضلون عدم الافراط في الفضول ، اثناء ابطال مفعول القنبلة ، وفي العادة كانوا يقفون بعيداً .

قال جوك بهدوء كابحاً حنقه :

— طيب ، انتظروا الآن ، يا او غاد .

بربر غولوداي ، وهو يرفع هامته فوق القنبلة :

— اسكت . ولا تتهيأ للضرب قبل ان تمسك بالعصا .

— لا بأس ، يا اخوان ، لا بأس ! — قال يانوشكا في زاويته ، وهو يمسح جبينه العرق . وكان هذا في السابق رئيس فريق كولخوزي ، أما الآن فهو معتقل الماني ذو عين واحدة . وكان في طبيعته أقرب الى التفاؤل ، ان كان من الممكن أن يكون بين الاسرى في المعسكر من يتصف بهذه الصفة . كان رغم عينه المفقوسة وطحاله المصاب يشجع الجميع دائماً سواء حين كان يحث الناس على الهروب ، أو حين يعود الى المعسكر تحت الحراسة بثياب مزقتها الكلاب مع قليل من الناجين .

بهذا الشكل عبروا عن موقفهم مما نووا عليه ، ما عدا سريبنيكوف الذي كان واقفاً عند الجدار يسعل بلا انقطاع ، وايفان ايضاً . منذ البداية لم يتحمس سريبنيكوف لهذا المشروع كله، لأنه حتى في حالة نجاحه ماكان سيجلب الفرح الكثير له ، فقد كان السل ينخر فيه اسرع مما ينخر نظام المعسكر والضرب. أما ايفان تيريشكا فقد كان صموتاً تماماً ، ولم يكن يحب إلقاء الكلام جزافاً، اذا كان كل شيء واضحاً بدون ذلك .

مسح غولوداي كفيه بسرواله المخطط ، ونظر الى الرجال ، فقد كان هو المحرك الاساسي.

— من يضرب ؟

سكت الجميع لحظة ، وخفضوا ابصارهم متحسسين بها في توتر جسم القنبلة الطويل

بخدوشه الممتدة على الجانبين الاخضرين .
واستغرق يانوشكا المهموم يفكر ، وقد نما شعر خشن اشيب على خديه الغائرين ، وانطفأ التصميم العصبي في عيني جوك السريعتين . بل وكف سريبنيكوف عن السعال ، واسبل ذراعيه على جسمه المسطح ، واكتست نظرته كآبة لاتطاق ، والظاهر أن هذا السؤال كان يقلقهم منذ البداية. صمت الجميع ، وكل واحد منهم يحسم في سره أهم شيء متعذباً بذلك .

عكس وجه غولوداي الضخم نفاد صبر ، وتصميماً صارماً على الوصول بالموضوع الى نهايته .

فقال بلهجة حاسمة :

– لا يوجد متطوعون ! اذن سنأخذ بالقرعة .

– نعم ، هذا أحسن . – وتحرك جوك ، واقترب منه .

ووافق يانوشكا قائلا :

– طيب ، الى القرعة ، تكون بعدالة .

سعل سريبنيكوف مسيطراً على نفسه ، ومتنفساً الصعداء كما يبدو . صمت تيريشكا وغرز طرف العتلة في الأرض بضربة واحدة . ولكن غولوداي ضرب فخذه ، وشتم :

– قرعة، ولا توجد هنا أعواد ثقاب ولا قش.

وتلفت على عجل . واختطف مطرقة ثقيلة ذات مقبض طويل كانت مرمية في زاوية من الحفرة .

– طيب ... امسكها أعلى .

وقرفص ممسكا اياها بيده من اساسها . وتقدم الآخرون منه ، وانحنوا ودنوا رؤوسهم فوق المطرقة . امسكتها يد جوك أعلى من غولوداي ، واعلى من ذلك تشبثت اصابع يانوشكا المعقدة ، ثم امسكت بالمقبض كف سريبنيكوف، وبعدها كف تيريشكا العريضة ، ثم كف غولوداي من جديد ، وكف جوك ، ويانوشكا . وحين لم يبق فوق تشابك الأيدي غير طرف صغير من المقبض مسته ببطء يد سريبنيكوف الراعشة العرقة .

وتنفس الجميع الصعداء لا ارادياً ، ونهضوا ، ووقفوا عند الجدار قليلا ، وحاولوا لجزء من الدقيقة ألا ينظر أحدهم الى الآخر ، وباشارة عازمة مد غولوداي المطرقة الى من كان عليه أن يموت معها .

وقال بشيء من الفظاظة كالسابق ، ولكن مع مسحة من التعاطف لا يكاد يبين :

– لتكون بعدالة ، بلا خداع .

وكف سريبنيكوف عن السعال لسبب مجهول وتمايل ، وتناول مقبض المطرقة ، اداره في يديه صامتاً ، وجرب أن يغير موضع يديه وانزلها . وثبت في رفاقه عينيه الممتلئتين لوعة قاهرة . وقال بخفوت بلهجة هالك :

– لا استطيع تحطيمها . لا أقوى .

وسكن الجميع ثانية . وبرقت عينا غولوداي غضباً وهما تحدجان الهالك :

– ما هذا منك ؟!

– لا استطيع ان احطمها . قواي ... هزيلة.

اوضح سريبنيكوف مقهوراً ، وسعل سعالا شديداً منقطعاً .

نظر غولوداي اليه ، واطلق شتيمة فجأة :

وقال جوك بسخرية لاذعة :

– عظيم !.. بعد كل هذا الجهد ...

وقال يانوشكا مهيئاً الى قبول ما وقع :

– واضح أنه لا يقدر ... لم تعد له القوة .

وأحس تيريشكا بأن شيئاً يتقلب في داخله، رغم أنه كان يفهم أن سريبنيكوف لم يدع العجز ، ولكن مثل هذه المفاجأة اثارت حنقه . ولبرهة خزر المريض بنظرة حادة ، وقرر شيئاً مع نفسه . لم يكن بالطبع يسعى الى الموت . وكان مثل الجميع يريد أن يعيش . حاول ثلاث مرات أن يفلت من الأسر (في احدى المرات وصل الى جيتومير تقريباً) . ومع ذلك فان في الحياة ، كما يبدو ، لحظة يجب فيها حسم كل شيء بحركة واحدة .

وتقدم من سريبنيكوف .

– هات .

رمشت عينا سريبنيكوف الحزينتان من

الدهشة ، وفك اصابعه طائعاً . وأخذ تيريشكا المطرقة ، وأوعز بشيء من الارتباك :

– لماذا وقفتم ؟ لنبدأ . ماذا ننتظر ؟

نظر اليه غولوداي الصارم ، وجوك العصبي ، ويانوشكا المهموم بحيرة ، وسرت فيهم حيوية فجائية فتقدموا من القنبلة .

– هيا ! جوك ، امسك بالحبل . هاتوا عوارض أين راحت العوارض ؟ – راح تيريشكا يصدر الأوامر بحيوية غير طبيعية ، واطل من الحفرة بحثاً على العوارض المعدة مسبقاً . ولكنه جفل رأساً ، وجمد الآخرون الى جانبه . رفع تيريشكا قامته كلها ببطء متوجساً بلية .

كان الضابط الالماني زاندلر يقف في شلال الشعاع الغباري المائل غير بعيد عن الحفرة . وقد رأى ايفان فوراً ، والتقت نظراتهما ، وأشار زاندلر برأسه :

– كوم !

شتم تيريشكا في سره ، وركن المطرقة على الجدار ، واسرع (الابطاء في هذه الحال غير ممكن) وخرج على المنحدر الى التربة المتكومة حول الحفرة . والى الخلف سكن رفاقه متوجسين واختبأوا .

كانت الورشة المغبرة الفارغة في ذلك الطرف (كان الالمان قد أفرغوا المعدات من هناك خوفاً من انفجار القنبلة) خانقة الهواء ، واشعة شمس الظهر

الغبراء تنصب على الارض في كل مكان من السقف المثقوب . وفي الطرف الآخر المهدم من المبنى الهائل كحظيرة طائرات ، حيث كان فريق النساء من قسم «س» يجمع الحطام ، كان الناس يروحون ويجيئون بالنقالات ، والنساء يدفعن العجلات اليدوية المحملة بكسر الحجارة على ألواح صفت على الأرض .

وقف زاندلر في الممر تحت صف الاعمدة ، دائراً جنبه الى رقعة ضوء كبيرة على الارضية الاسمنتية ، وقد وضع يديه وراء ظهره ، وراح ينتظر . ركض تيريشكا بسرعة نازلا من كومة التراب ، وترددت طرقات قبقابه عالية ، وهدأت. وقف قاطباً حاجبيه الاشقرين العريضين على بعد خمس خطوات عن زاندلر تماماً في رقعة الأرض المضاءة . اخرج ضابط «اس‌اس» يداً واحدة من وراء ظهره، ومس باصابعه حافة طاقيته العريضة، وقال بالالمانية :

— كيف القنبلة هناك ؟

قال ايفان برباطة جأش :

— قريباً ، حالا .

— أخرجوها بسرعة .

ونظر زاندلر بارتياب صوب الحفرة التي كانت تبرز منها رؤوس الاسرى الاربعة ، ثم الى ايفان الذي كان واقفاً وقفة استعداد الجندي ، متهيئاً لكل شيء . وقد غرز نظرته الحادة في وجه

الالماني الحليق الملوح ، المفعم بالاحساس بالسلطة والمهابة . وفي ذات الوقت راقب ايفان كل حركة من حركات يده اليمنى . وعلى مسافة غير بعيدة منهما ، في النصف الآخر من الورشة انزلت امرأتان في ثياب مخططة النقالة الى الأرض ، وراحتا تنتظران بفضول ومغالبة الخوف ما سيحدث بعد هذا . مرر الالماني نظرة زلقة على جسم الاسير العريض المنكبين ، المعبر في مظهره الخارجي عن التهيؤ للعمل لاغير ، وفهم ذلك بطريقته الخاصة ، تقدم منه ومد اليه رجلا في جزمة متربة . وقال مشيراً الى الجزمة بلكنة ظاهرة :

— ايمسح !

وفهم ايفان ، بالطبع ، ما كان يطلب منه. (فلم يكن ذلك جديداً عليه) ولكنه ذهل للحظ من المفاجأة (فقد كان متهيئاً لشيء آخر تماماً) وتأخر بضع ثوان . انتظر زاندلر والوعيد مرتسم على وجهه الفظ الناتيء الوجنتين . وكان من المستحيل التأخر اكثر من ذلك ، فحط ايفان عند قدميه . كان ذلك مهيناً محنقاً ، وقد انعصر ايفان من الداخل ضاغطا على غيظه القاهر الذي لم يكن من المناسب الكشف عنه الآن .

انحنى ، ومسح الجزمة بكمي سترته الممددين . كانت الجزمة جديدة منظفة بعناية كل صباح ، وسرعان ما صار بوز الفردة

الأولى يعكس وهج الشمس . ثم لمع الساق والقفا ، سوى بعض الغبار بقي في الدروز ، وخدش جديد لم يستطع ازالته من البوز . وخلال ذلك قدح الضابط قداحته ، واشعل سيكارته ، واخفي علبة السكائر في جيبه . بلغت ايفان رائحة الدخان ، فأججت حاسة الشم بشكل موجع. ثم نفض الالماني الرماد على مايبدو ، فتساقط الشرر على رأس ايفان الحليق ، ولذعت عنقه شرارة لم تنطفيء بعد . فاشتعلت نفسه بنار شديدة من الغيظ ، فلم يكد يضبط نفسه ، وهم بان ينتفض ، ويضرب هذا الرذيل ، ويلقيه ارضاً ، ويدوس عليه . ولكنه ظل ينظف الجزمة مصارعاً نفسه ، محاولا أن يتحرر من الالماني باسرع وقت ممكن . الا أن هذا لم يكن على عجالة شديدة ، وابقى جزمته الى أن لمعت من اعلاها حتى طرفها . ثم سحب قدمه ليضع الاخرى .

رفع ايفان جذعه قليلا ، وفي تلك اللمحة القصيرة من استرداد الانفاس نظر الى المكان الذي توقفت فيه بعض الاسيرات يراقبن ما يجري بينهما . نظر خطفاً ، وبلا أي امعان تقريباً، ولكن شيئاً جعله ينتبه فجأة . عند ذاك امعن النظر اكثر محاولا أن يفهم جلي الامر ، وفهم : لقد كان يفضل أن تغوص به الارض على أن يواجه ذلك الازدراء الماحق في عيني المرأة تلك . ولسبب ما لم يستطع أن يلحظ شيئا غير

هذا ، بل ولم يدرك أكان ذلك الوجه فتيا أم ربما تخطى الشباب ، ولكن تلك النظرة كالماء الفائر لسعت روحه بألم تقريع لايطاق . وخلال ذلك حطت على ركبتيه الفردة الثانية المتربة ، وعلى ساقها بقعة بيضاء كبيرة . غمغم الالماني بكلمتين بفارغ الصبر ، ووخز صدر الاسير ببوز جزمته . تباطأ ايفان ، فقد انفجر فيه فجأة ماكان يبيح له من قبل السيطرة على نفسه . انزلت اصابعه كمه ، وانشبت اظافرها براحته . وتملكه سلطان الغضب وملأ قبضتيه بثقل لايطاق، فوثب على قدميه ، وضرب الألماني على فكه بضراوة . وقد حدث ذلك بسرعة شديدة حتى أن ايفان نفسه اندهش ، حين رأى زاندلر مطروحاً على الأرض الاسمنتية . وقد نطت طاقيته ، وتدحرجت بعيداً .

وقبل أن يعي ايفان الى النهاية مغزى ما حدث سحب رأسه بين كتفيه ، وسع ما بين رجيله ، ووقف فوق الالماني وقبضتاه مضمومتان كما هما . كان ينتظر أن يثب زاندلر رأساً ، ويهجم عليه . بلغ سمعه من مكان بعيد هتافات مستثارة بلغات عدة ، غير أنه لم يكن يعي هل كانت تدينه أو تحثه . الا ان ضابط الـ «اس اس» لم يهجم عليه ، بل انقلب على جنبه بلا عجل وكأنما يغالب الألم ، وجلس ، ورفع طاقيته من الأرض ببطء ، ونفض الغبار عنها بنقرات قليلة.

يبدو أنه لم يكن يتعجل النهوض . قعد باسطاً رجليه بسعة واحدى فردات جزمته لامعة ، والثانية مغبرة ، كأنما لم يكن يعبأ بشيء ، ومسد شعره بكفه ، ولبس الطاقية ، وعند ذلك فقط رفع الى الأسير المحنق والبادي الارتباك نظرة ثقيلة متوعدة ،وفي تلك اللحظة فك بحركة حاسمة غطاء قراب مسدسه .

برقت في ذهن ايفان فكرة : «هذا نهاية كل شيء !» دفع الالماني ترباس مسدسه ، وقفز على قدمه بحركة خاطفة مفاجئة اخرجت ايفان من ذهوله رأساً ، وليتجنب الموت جزافاً اندفع برأسه نحو عدوه .

الا أنه لم يلحق أن يوجه له ضربة ، فان الأرض قد ارتجت فجأة ، وانتفضت ، وألقاه الانفجار الرعدي المفاجىء ، وأصمه ، ودفعه الى هاوية سوداء . غطت الالماني وكل ما حوله سحابة من الغبار البني اللاذع .

وبعد ثانية شعر ايفان بأنه راقد على الارضية ، وحوله تساقط وتناثر ، وهسيس داخن نتن . والحرارة تلسع ظهره وهو لا يعرف لماذا سقط وتطاير الطابوق قربه في وقت متأخر. تلفت ايفان ، فرأى الجزمة ذات البوز المخدوش ، تلك الجزمة المعروفة له تتشبث في عجز على الارضية الاسمنتية ، وجسم عدوه يختلج في سحائب الغبار محاولا أن يبتعد زاحفاً.

التقط ايفان من تحت جنبه قطعة اسمنت ثقيلة ، وهبد بها ظهر الالماني بقوة . تأوه زاندلر ، وطرح ذراعه في الهواء . فتذكر ايفان المسدس بهذه الاشارة فاجتاز الضابط زاحفاً على ركبتيه، وانتزع المسدس من بين اصابعه شبه المعكوفة، وانطلق في دوامة الغبار وقلبه يدق في صدره بجنون .

— ٥ —

خيم على الهاربين ليل كئيب شريد في مضيق حجري ضيق فيه اشجار صنوبر مائلة كان يضيق بالتدريج ، ويصعد الى فوق شيئا فشيئا .

تسلق ايفان الصخور المطحلبة ، لا بخفته السابقة ، متوقفا من حين لاخر ينتظر الفتاة التي كانت تبذل آخرما لديها من قوة لتسير وراءه بعناد . وكان يريد أن يخرج من هذا الخندق المعتم مهما كلف من جهد . فمن المحتمل أن يكون الظلام الذى بدأ يغطي المضيق بضباب كثيف اخف في الاعلى هناك . الا أنه لم يعد يملك العزيمة ولا القوة للقيام بذلك . ان ايفان كما كان يود كثيرا أن يبتعد عن المدينة اكثر ما يمكن ، ويستفيد الى الاخر من هذه الامسية الممطرة التي جاءت على المرام هذا اليوم ، فأخفت آثار الهاربين عن الكلاب بشكل مأمون . أخذ ايفان يصعد في الجبل اكثر فاكثر ضاغطا

على نفسه ، لان احضان جبال الالب وحدها هناك يمكن أن تخلصهما من الملاحقة ، بينما الموت كان بانتظارهما في الاسفل ، في الطرق ، والوديان .

وياويحها من جبال ! وكان ايفان ممتننا لها لمناعتها على الحراس الالمان وراكبي الموتوسيكلات ، ولكنه أخذ يحقد عليها لانها كانت تستنفد القوى بلا رأفة ، حتى استطاعت اخيرا ، أن تنهك الانسان ، على ما يبدو . ان هذا يختلف عن هروبه الاخير من سيليزيا ، فقد كان من السهل هناك السير ليلا عبر الحقول والمروج ، وكانت النجوم في السماء الصاحية تدله على الطريق الى الوطن . وقد ساروا آنذاك في جماعة صغيرة . وكانوا ينسلون خفية الى القرى الالمانية وعزب ومزارع ، يحصلون على شيء مما يؤكل ، من الخضار بالدرجة الاولى ، والحليب ايضا من جرار الحليب المعدة قرب أبواب الحدائق لارسالها الى المدينة في الصباح . وكانوا يقضون النهار الطويل كله . المضني بفراغه مختبئين في حقل جودار أو أجمة يتناوبون اليقظة . حقيقة أنهم ارتعبوا كثيرا هناك ايضا . قضوا شهرا كاملا في التسلل الى حدود وطنهم الحبيبة مهلهلي الثياب ، غير حليقي الوجوه ، في سحنات مرعبة . ان ايفان لا يعرف ماذا حصل للآخرين ، ولكن الحظ عاكسه كثيرا في تلك

المرة ايضا . افلت من ايدى رجال الـ «اس اس» ليقع في ايدى اوغاد مثلهم كانوا في الشكل يبدون مثل رجالهم . وحين أخذوه الى المدينة ، لم يصدق كليا أنهم لا يمزحون ، فقد كانوا شبانا ريفيين اعتياديين تماما يتشاتمون بلغة مفهومة دون غل ، ويرتدون جلابيب فلاحية مستهلكة ، ولا يحملون من السلاح غير بنادق الصيد الخفيفة ، الا ذلك الذى كان يشد ربطة بيضاء على كمه ، فقد كان يعلق على كتفه قربينة ألمانية .

أما الآن فهذه الجبال، جبال ألب اللختالي — الاقليم الغريب الغامض الذى لم يقع عليه بصره أبداً ، ومن جديد يداعبه الامل الصغير العنيد في بلوغ الحرية .

تعب ايفان كثيرا ، و حين أخذ يتفقد ما يمكن أن يقضي فيه الليل ، صدر من خافه صوت ارتطام مصمت ، وتناثرت الاحجار على المنحدر . التفت فرأى رفيقة دربه منطرحة على المنحدر ، بل وبدت وكأنها لاتحاول النهوض . فتوقف ايضا ، ورفع جذعه ، والتقط نفسا عميقا . كان المساء قد هبط ، والمطر ينث من الاعلى حفيفاً كالغبار لا يكاد يسمع ، وكتل الصخور حوله رمادية باهتة ، واشجار الصنوبر في الاعلى ترسل جدائلها السوداء المبعثرة، والسماء ترزح واطئة مثقلة برداءة الطقس والظلام . وكانت

الثياب المبللة ، وقد ادفأها السير ، ترسل بخارا خفيفا ، وحالما يتوقف كانت الرعشة تهز ظهره الرطب . رأى في الخلف شبح مرافقته الداكن ، وحركات رأسها التي لاتكاد تلحظ ، وذراعيها الجامدتين العاريتين حتى المرفقين .. لقد بقيت في مكانها ولم تنهض . عندئذ نزل الى الاسفل ، وحشر المسدس في فتحة الصدر ، وأنحنى ، ورفع بحذر جسدها الخفيف . تململت، وجلست ، دون أن تفتح عينيها ، فوقف لحظات، مفكرا في ضيق بأنهما سيضطران الى المبيت هنا.

تلفت ايفان فيما حوله – فرأى في احد الجانبين كتلة هائلة من الصخور والاحجار ترتفع عالية الى فوق . وفي الجانب الآخر يتلاشى المنحدر الى الاسفل في اجمة الغابة المعتمة ، حيث كان لايفتأ يتصاعد من هناك ضباب رطيب كثيف، حتى ان العين لم تعد ترى اى قاع هناك، ولا تسمع الاذن غير خرير جدول رتيب في السكون البخارى الرمادى ، في مكان بعيد هناك.

مس تيريشكا الفتاة من كتفها مشيرا لها بأن تنتظر هنا، وواصل هو السير ، و تفرس في الظلام . في أحد المواضع كانت صخرة تخيم قليلا فوق المنحدر الصخرى ، ولم تكن بالطبع ملجأ مقبولا ، ولكنها كانت تحمي من المطر ، ولا اكثر من ذلك .

عاد من حيث جاء واطئا الاحجار الحادة بحذر .

غريب أين ذهبت الحيوية التي كانت لدى هذه الفتاة قبل حين ، أين ذهبت جرأتها أمام راكبي الموتوتسيكلات . فقد كانت تبدو الآن مثل طائر مبلل متعب ألقاه في هذا المضيق قدر أحمق . لم تستجب الفتاة الثقيلة الانفاس للمسة يده ، ولم تقف على قدميها ، بل انكمشت اكثر في تكويرة صغيرة . قال :

– دعينا نستريح قليلا. نستريح، أتفهمين؟ أو كيف يقال بالالمانية : شلاخين ...

سكنت لحظة ، وكبتت رعشتها ، ولكنها بقيت على جلستها مطأطئة رأسها . وقف بعض الوقت ، ثم اختطفها بكلتا ذراعيه يريد أن ينقلها الى الملجأ . لبطت الفتاة بين ذراعيه بقوة غير متوقعة ، وصرخت بالايطالية بكلام ما ، ورفست برجليها ، فتركها . ظل واقفا هنيهة وفكر بانزعاج وغيظ: «الى جهنم . أبقي في مكانك، يا مؤذية! » وانصرف الى تحت الصخرة، والآن فقط شعر كم هو ضعيف غطى علباءه بياقة سترته ، بعد أن اغمض عينيه ، وغفا .

وكما هو دائما كف العالم عن الوجود بالنسبة له بلمح البصر ، وقد أخلى مكانه لدوامة الكوابيس . وكان هذا الانتقال انسيابا غير ملحوظ حتى كأنه استمرار لعالم اليقظة

المعذب . كان في كل مرة يحلم بحلم واحد لا يتغير . فهو منذ أكثر من عام كان في كل ليلة تقريبا يعاني مرة بعد الاخرى من عذابات يوم واحد من ايام الحرب .

كان كل شيء قد بدأ بجو المحنة الواقعي تماما ، والثقيل ، المحنة التي يجلبها الاندحار العسكرى . ورغم أن الانفعالات قد خفت حدتها، وغطت عليها متاعب اخرى كبيرة وصغيرة. الا أنها كانت تعذبه في النوم بزخم جديد .

وكما في العادة كان يرتفع امامه في البداية جدار متهدم لكوخ اوكراني مملوط كتب على ركن منه بالفحم: «استثمارة ألكسييف» وسهم مؤشر على مقربة. وتاريخ الكتابة يعود الى شهر تقريبا، حين كان الجيش يهاجم زمييف ، متحاشيا خاركوف . أما الآن فان القوات كانت تتحرك في الاتجاه المعاكس . في الليل أغرقوا الشاحنات في النهر لنفاد البنزين ، وبعثروا اقفال المدافع في الحقل ، واحرقوا اوراق مقر الاركان في الحدائق . وفي الفجر جاء الى الفناء الذى باتوا فيه بعد اجتماع قصير ضابط برتبة عقيد كان يقود مجموعة من المحاصرين ، وأوعز الى سريتهم بتغطية الطريق على التراجع ، وأخذ ثلاثة مقاتلين مع ملازم شاب بحفر خندق ضيق عند الكوخ الاخير .

وقد علق ذلك في ذاكرة ايفان مدى العمر ،

ولكنه الآن ، في الحلم المفزع لايعرف لماذا كان ذلك العقيد يندفع في الفناء يحمل مظروف خريطة ، ويشتم غولوداي ، البحار في اسطول البحر الاسود الذى صار آمر سرية حملة البنادق الرشاشة . والرقيب تيريشكا لا يعرف لماذا كان سريبنيكوف يجالسه في الخندق وليس عبد الرحمنوف المقاتل من بطاريتهم المحطمة ، الذى كان لا يعرف الروسية تقريبا . لقد كان المهزول ، بدلا من أن يهيىء المدفع الرشاش للمعركة ، يكشط شارات وظيفته من قميصه بسيف ألماني عريض الحد بشكل محموم ويدمدم مع نفسه طوال الوقت: «ولا خطوة تراجع ! ولا خطوة تراجع! .. » الى جانب ذلك لوحة حقيقية تماما لذلك الصباح البعيد: سماء ربيعية صافية، وظل بارد مزرورق يلقيه ذلك الكوخ مائلا عبر الطريق . وتحت السياج قراص مهتز .. وكذلك كوز معلق كان غالبا ما يهتز . ووراء الضاحية تدخل الدبابات القرية على الطريق العامة . ولا بد أنها ستبرز من وراء ركن هذا البيت بين لحظة واخرى ، وايفان تيريشكا لا يستطيع ، مهما حاول ، ان يركب الكبسولة في القنبلة اليدوية . فهو يدفعها باصابعه بكل ما لديه من قوة ، ولكن هذه الكبسولة الصغيرة من الشبه لا تدخل في الفتحة ، وكأنما صارت أسمك مما يجب . وينفعل تيريشكا ، ويستعجل ، ويضربه

بجمع يده ، وحين ينتبه يجد نفسه وحيدا في الخندق ، والجميع قد تراجعوا . وعند ذاك يدرك أنه لم يسمع الامر بالتراجع . فيلقي صدره على المتراس ، ويحاول الانسلال من الخندق والتراب ينهال عليه ، ولكن جسده الرازح تحت ثقل مبهم لايطيعه ، فينزلق راجعا .

الدبابات صارت على مقربة .

ويطير سرب هائل من العصافير من حدائق البيوت الى كبد السماء مروعا بهديرها . ويستدير في طيرانه السريع الى ناحية بحركة جماعية ، ثم الى الناحية الاخرى بنفس الحركة ، واذا بالدبابة الاولى تخرج من وراء كوخ وهي تسحق الارض في المنعطف .

ويدرك ايفان أنه لا يفلح في الهروب ، فيلوح بذراعه ، ويرمي القنبلة اليدوية على الطريق . ولكنها لسبب ما لا تنفجر ، بل تتقافز ، وتهس ، والدبابة توشك ان تتجاوزها وفي ذلك الوقت يفطن من في الدبابة الى الخندق عند الحائط ، وتستدير الدبابة ، وعندها يستحوذ على تيريشكا رعب لا يوصف . فقد أدرك أنها احدى دباباتهم ..

وللحظة يفقد ايفان السيطرة على نفسه من الرعب مما اقدم عليه ! فيندفع الى الوراء ، ولكن وجهه يكاد يرتطم بحد حربة عريضة مدلاة فوقه . لان ألمانيا يقوم بهجمة قصيرة ، وتنغرز الحربة

في صدره بنعومة وبلا صوت ، وكأنما تنغرز بصدر غير صدره . وايفان يعرف أن ذلك النهاية ، وأنه قد قتل ، فيشهق من اليأس ، ولو أنه لا يشعر بألم لسبب ما ...

وفي العادة يستيقظ ايفان في تلك اللحظة مذعورا ، ولكن الآن وعيه يعمل وكأنما على انفراد ، في ناحية ، وينشط موحيا بأن الأمر لم ينته بعد ، وأن أمامه الاسر ، والهروب ، ولهذا فهو لا يمكن ان يموت ، وان طعن بحربة .

وتختلط الاحلام ، وتتبدل ، فيحلم بأنه في قريته ، بين ذويه ، في أرض القبائل المتحالفة القديمة ، وأن كل شيء يحدث في زمن قبل وقوع الحرب ، بل وقبل استدعائه للجيش ، وايفان يركض في شارع حفرته أظلاف الاغنام الى شونة الكولخوز ، حيث ساقوا غولوداى موثق اليدين — وايفان يعرف ذلك — ومعه بعض المعتقلين المعروفين . وقلب ايفان يتمزق من التكدر ، من التوتر . ويتصور أنه سيتأخر ، ولا يثبت للناس أن صب جام الغضب على الاسرى لا يجوز ، وأن الاسر ليس من ذنبهم ، بل سوء طالع ، وأنهم لم يستسلموا ، بل أسروا عنوة ، بل والبعض منهم سلموا تسليماً ، وغدر بهم ، فان مثل هذا الشيء قد حصل ايضاً .

ولكنه لا يصل الى الشونة ، قدماه الحافيتان تلتصقان في الوحل فلا يكاد ينقلهما ، وذراعاه

خدرتان، وكل جسمه. انه يركض، وكأنه في ماء، ببطء وصعوبة . وعندما يطلع الى الطريق يتجه مستديراً نحو السياج فيرى عليه فجأة قدمين حافيتين . يرفع رأسه فيرى فتاة لا يعرفها تجلس على الاعواد العليا – فتاة ذات حاجبين أسودين مرفوعين ، وثوب ناصع البياض يلمع في الشمس . وتبتسم له بعينيها السوداوين المشعتين الشبيهتين باجاصتين ناضجتين ، وتقول :

– تشاو ، ايفان !

فيتوقف ، وقد نسي غولوداي فجأة ، وكل ما في الدنيا . انه فرح سعيد ، مرتبك من لقائه مع الفتاة . وفجأة يخيل اليه أنه يعرف هذه الفتاة منذ زمن بعيد ، وأنها قريبة اليه الى حد أنها كانت طوال حياته تهجس في احلامه . ويتقدم من الفتاة الواقفة عند السياج وهو يتألق فرحاً ، ولكنه ينظر الى نفسه فينتبه الى أنه جاء راكضاً من الحقل ، نازلا من جرارة ، يرتدي بنطلوناً قديماً مرقعا على ركبتيه ، وقميصاً ناصل اللون عند الكتفين ، ويداه ملطختان بالمازوت . فيتوقف بارتباك ، ويغتم . وهي أيضاً تزيح البسمة المشرقة من وجهها المشمس بشكل غير اعتيادي. وفجأة يبهت بياض ثوبها الباهر ، وتختفي الفتاة بالتدريج ، كالطيف .

عندئذ يندفع الى السياج ويمسك بالاعواد

فاذا بأمه تظهر أمامه، وقد وضعت يدها على العود الاعلى ، ووقفت في الجانب الآخر من السياج ، بين زروع البطاطس ، وتقول متفجعة :

– انها فاشية ، ياولدي . وشت باصحابك للالمان ...

«أين هي ؟ اين ؟» – يريد أن يصرخ ، ولكنه لايستطيع أن يفعل ذلك ، لأن في رقبته حبلا – الحبل الحريري الاسود الذي كانوا يشنقون به المعتقلين في المعسكر على قرع الطبول . والحبل يلتف ، ويتوتر ، وطرفه الآخر ينسحب كالمقود وراء الكلب الذي لم يقتله في المناوشة . والكلب يسحب المقود بقوة . ويسقط ايفان ويريد أن يصرخ ، ولكنه لا يملك صوتاً ، وفي تلك اللحظة يستيقظ من رجة في داخله .

– ٦ –

– ها ، ها ، ها !

هذا الضحك الرنان تطلقه فتاة من فوقه .

ويرفع رأسه ، ويشرئب بعنقه ، ويفتح عينيه الناعستين على سعتهما ، وأول مايراه أمامه ازرقاق السماء الناصع السحيق ، والفتاة تبتسم ابتسامة مرحة تكشف عن اسنانها البيضاء .

– كفى شلاوفن ! لازم يمشي ، يمشي !

ارتجف جسده من البرد رأساً ، وكأنما بفعل تيار . وصمت وهو ما يزال لم يتخلص من احلامه المزعجة ، متحولا بصعوبة الى عالم الواقع بكل همومه ، ونظر الى الفتاة ، غير مشارك اياها مرحها . أما هي فقد كانت تجلس الى جانبه متكئة على يدها ، تقضم نصل عشب دغدغته به على ما يظهر . ولم يبق من خمول يوم أمس وارهاقه أي أثر .

– تقولين نمشي ؟ طيب ، لننظر .

– ننظر ، ننظر . – قالت موافقة ، وحدقت في وجهه وفي عينيها التماعات عابثة .

أما هو فقد هز كتفيه مرة أخرى ، ونهض بسرعة ، ولوح بيديه مرارا ، وأخذ يقذف برجليه على الجانبين ، ويقعو – وتلك طريقة مجربة يزاولها الجنود ، حين يريدون تدفئة أنفسهم . اندهشت الفتاة في البداية ، ورفعت عالياً حاجبيها المقوسين العريضين ، ثم ضحكت فجأة ضحكة مقتضبة ، ولكنها عالية ، حتى أنه همس مذعوراً :

– حذار !

وتنبهت ، واطبقت كفها على فمها ، وتلفتت. والعفاريت الصغار العابثة ما تزال تتراقص في عينيها دون تعب . نظر ايفان اليها بحدة ولوم ، ثم انصت، شاعراً بالدفء يتسرب قليلا الى

جسمه المتخشب من البرد . وغمغمت الفتاة من جديد في هزء خلي :

– رياضة ؟

– نعم ، رياضة . يعنى أحسن أن اتجمد ؟

كان مشغول البال ، غير ميال الى النكت . وقد ادركت ذلك ، كما يظهر ، فصارت اكثر جدية ، وارتعشت كتفاها الضيقتان النحيلتان تحت السترة المبللة منذ يوم أمس ، وزفرت ، ونظرت اليه من الخلف بفضول .

وعلى قديم عادته العسكرية تلفت فيما حوله طويلا ، وأدرك أنه قد تأخر في نومه بالفعل ، وأن الفجر قد طلع منذ زمان . والحقيقة أن الشمس لم تخرج بعد من وراء الجبال ، ولكن السماء الصافية كانت كالصادحة بزرقتها الصباحية الباهرة ، وكان الجانب المقابل المضاء من المضيق يتألق بكل ألوان قوس قزح : الصخور الرمادية ، واشجار الصنوبر ، والفلوع العريضة الحادة ، والصخور العالية . وكان هذا الجانب مثل الكتلة الرمادية الداخنة يهوم بصبر ، ولم يودع ظلام الليل بعد .

– جبال جميل ! – قالت الفتاة بركاكة وقد رأته يحدق فيما حوله – يعني كيف اسمه؟.. استيتيكو !

وقفزت من الصخرة التي كانت تجلس عليها ، وطق قبقابها ، وطلعت ايضاً من تحت

الصخرة متطلعة الى فيض الشمس في الجانب المقابل من المضيق الا أن ايفان لم يكن يكترث بالطبيعة . كان كل كيانه ، وكل جزيئة من جسمه مفعماً بشعور مؤلم بالفراغ الى جانب التيقظ مثلما هو في كل صباح من صباحات الأسر ، تلك هي نوبة الجوع المعتادة المألوفة له الى حد الدقائق . والآن ايضاً ليس لديه ما يأكله . فقد كان لا يعرف أين يحصل على الطعام في هذه الجبال اللعينة ، كما كان في ذات الوقت يدرك بوضوح تام أنهما لن يستطيعا السير بعيداً وهما جائعان . وقف ايفان قليلا ، وبلع ريقه ، وسأل غير مكترث بما كان يشغلها :

— الى أين تذهبين ؟

لم تفهم فرفعت حاجبيها :

— الى أين تمشين ؟ — كرر وقد أخذ ينزعج — هذه الناحية أو تلك ؟ الى أين كنت تهربين ؟

— أوه ، جبهة شرق ! اهرب جبهة روس .

نظر اليها باندهاش ، فاكدت له ، وقد رأت ارتيابه :

— سي ، سي * ! السينورينا تريد تطلق النار على الالمان .

ذلك هو العجب ! ان سذاجتها أخذت تغيظه

---

* نعم — نعم (بالايطالية) .

منذ الصباح . قطب ايفان حاجبيه ، ونظر في ذلك الوجه المتغير والجميل للغاية ، حسب رأيه، فلربما تمزح ؟ ولكنها لم تكن تمزح ، على ما يبدو ، وقد اعربت عن نيتها بجدية تامة منتظرة ما سيقوله ايفان ، ونظرت اليه بعينين لا قرار لهما .

قال ، وهو يحكم طي طرفي سترته :

– أي اطلاق نار ؟ حماقة .

– انت ؟ ما هذا احماق ؟ الروسي يعلم سينيورينا يتكلم روسي ؟

– سنرى .

– جيد سنرى . موافق ، نعم ؟ – استفسرت مازحة .

ولكنه لم يجبها – فقد أرتجف بعد أن شعر برطوبة السترة الباردة على ظهره ، ونظر الى الشارات السخيفة على صدره . يجب الاهتمام بالملابس ، اذ ليس من الممكن الهروب بعيداً في هذه الملابس المخططة . انشب اصابعه واقتلع الشارة والرقم بحركة حادة ارسلت صوتاً، وحذت هي حذوه فأخذت تقتلع شارتها ورقمها رأساً . ولكن اظافر أصابعها النحيلة كانت رقيقة للغاية، والخيوط لم تكن من الرقة بحيث تستجيب لها بسهولة . عندئذ تقدمت منه ، ومطت شفتها السفلى الممتلئة ، وهزت كتفيها :

– هات .

– لا هات ، بل هاك – قال ، واستدار نحوها .

وجعله البروزان الناتئان بحدة من تحت السترة المترهلة يقطب حاجبيه ، ويطبق شفتيه . وقد لاحظت ذلك فاسرعت وامسكت طية السترة، وجذبتها . وبعد تردد قصير امسك ايفان الشارة من طرفها ، واقتلعها بقوة . وليضيع اي أثر لها ، دسها تحت صخرة .

– غراتسيا ، شكراً .

سألها :

– اين تعلمت الروسية ؟

– في ايطاليا . في روما تعلم . ماروسيا سينيورينا الروسية علمني في المعسكر . يحكي أنا روسي جيد ؟

فرد بالايجاب بدون اكتراث :

– جيد .

– أنا يفهم كثير جيد – قالت متباهية ، وابتسم ايفان في سره لهذه السذاجة . وكان ، في الحقيقة ، يفكر في شيء آخر .

– أتعرفين أين تريسته ؟

فاجابت بحيوية :

– أوه ، تريسته ! جبال .

– اعرف أنها جبال . ولكنها في أية ناحية ؟

نظرت في ناحية ، ثم في اخرى ، واشارت

بذراعها بثقة الى حيث كانت الشمس غير المرئية من موقعهم ترتفع فوق الجبال .

– هناك طريق تريسته .

«طريق !» – فكر ايفان دون مرح . ويا له من طريق عبر المنطقة الشاسعة لجبال الالب ، عبر الفجاج والانهار ، والمهم عبر الوديان الكثيفة السكان ، وطرق السيارات النشيطة . اذن، ليست قريبة هذه تريسته التابعة للانصار التي سمع عنها الكثير في معسكر الاعتقال . ولكن لم يكن امامهما خيار كثير ، واذا كان قد اسعدهما الحظ في الافلات من الجحيم ، فمن الحمق الشديد أن يتركا انفسهما الآن يشنقان على الانشوطة السوداء وسط قرع الطبول .

ولهذا يجب أن يواصل . يواصل ، يزحف ، يركض ! لا يتوانى ، ويستجمع قواه ، ويستفيد من كل خبرة ، من كل امكانية ، ويعبر السلسلة الجبلية الرئيسية، ويجد الانصار اليوغوسلافيين، والايطاليين – وأياً كانوا ، فقط أن ينضم الى الصفوف ، ويحمل السلاح . فقد كان ايفان يرى في ذلك معنى الحياة الآن ، ورسالته المثلى والمكافأة لكل ما لقيه من عذابات وعار خلال سنة الأسر .

كان الجو في المضيق المعتم باردا . وكانت الرعشة ترهق جسده الذي برد اثناء الليل . فكان يود لو يصل باقرب وقت الى الدفء ، الى

الشمس . وجدا موضعاً مناسباً على المنحدر ، وزحفا بين الصخور الى الاعلى. وفي هذه المرة كانت هي المجلية في الصعود ، لأول مرة منذ لحظة لقائهما ، أما هو فقد تخلف قليلا ، وراح يصعد في أثرها ، فكان ذلك بمثابة أول ثقة متبادلة بينهما .

كان المنحدر الصخري في ذلك الموضع انحداراً شديداً بقدر كاف ، فكان القبقاب ينزلق ويسقط من قدمي الفتاة . واخيراً خلعته الفتاة ، وحملته بيد واحدة ، وباليد الثانية راحت تمسك انصال عشب شائكة قوية كالاسلاك وتقفز من صخرة الى أخرى بخفة كالعظاية .

قالت دون أن تتوقف :

– روسو ، أنت ضابط ؟

– لست ضابطاً . أنا أسير .

– اسير ، أسير . فاهم . قبل الحرب ماذا انت ؟

تريث ايفان في الجواب . اذ لم يرق له شروعها في الاستجواب (شعبة خاصة امامي !) فغمغم وهو يضبط نفسه :

– كولخوزي .

– ما معنى كولخوزي ؟

فبربر بشيء من الغلظة :

– لا تفهمين ، ومع ذلك تسألين . يعني ، باورا ، فرشتين ؟

— فاهم ، يعني : لاندفير شافت * ؟
— نعم ، نعم ، كولخوز .
— أنا يحب كولخوز كثير ! — قالت بحيوية فجائية — كولخوز لطيف. ليافوراره ** كومبني. راحة كومبني ، توتو *** كومبني . كومبني لطيف . كولخوز روسو اقتصاد جيد . أنا فاهمة صحيح ؟ — سألت والتفتت .

لم يتسن له الوقت ليجيب . تدحرجت الى الاسفل أحجار وحصب وقطع صغيرة أخرى حركتها قدما الفتاة ، فما كاد يلحق أن يتنحى . ضحكت من فوق ضحكة عابثة ، ووقعت بجنبها على المنحدر . صاح ايفان بغيظ :

— حذار !

فانتبهت الى نفسها من جديد ، وغطت فمها بيدها ، وتلفتت .

— باردون .

— باردون ، باردون ! عليك بالهدوء . مالك هجت ؟

كان انطلاقها يغيظه ، ولكنه صاح عليها بفظاظة بالغة ، على ما يبدو ، فالقت عليه نظرة متكدرة ، واطبقت شفتيها . قالت :

---

* زراعة (بالألمانية) .
** العمل (بالايطالية) .
*** الجميع (بالايطالية) .

– أنا اسمي جوليا ، سنيورينا جوليا .

نظر اليها بحدة ، وقد قال لنفسه : «وماذا اذن ؟ سنيورينا !» فقد كان ذلك لا يعني له اي شيء اطلاقاً ، وعلى الاخص لم ينو أن يجاملها . أما هي فيبدو أنها قد تأثرت ، فصمتت ، وراحت تصعد الى فوق بعجالة . تأخر ايفان قليلا ، وأخذ يطأ الاحجار الخشنة الباردة بخطوات عريضة ، ومطأطىء الجذع على الأرض ، يلقي نظرات مقتضبة من تحت حاجبيه على قامتها اللدنة ذات الثياب المخططة ، ويفكر : من هي ؟ فتاة خفيفة في سلوكها أي «هورن» كما يسميهن الالمان ، او متصعلكة من متصعلكات المدن الايطالية الصاخبة ، او فراشة من فراشات الليل العابثات احرقتها لظى الحرب ؟ وقد بدا ذلك اقوى الاحتمالات ، بالقياس الى طبعها العابث اللهوف الى المغامرة . صحيح أن شارتها كانت حمراء ، مما يوضع على صدور السياسيين ، كما أنها تحدثت عن كراهيتها للالمان ، ولكن ايفان لم يصدق كثيراً في أن عداءها للفاشيين ذو أسس جدية فلربما ساء اليها أحد الألمان ، وبعدها اصابها ، بالطبع ، ضيم كبير في معسكر الاعتقال، ولكن من المستبعد أن مثيلاتها يتذكرن الاساءات طويلا . وعلى العموم لم يكن ايفان يعرفها ، رغم أنه كان شاهد عيان اكثر من مرة على استخفافها الذي كان يتوقف عليه الآن مصير

هروبهما . ولكنه كان يدرك أن عليه ، في مثل هذه الاحوال ، ان يكون يقظاً بشكل خاص ، يعتمد على نفسه اكثر .

- ٧ -

حين صعدا الى حافة الحيد الصخري ، وتوقفا لالتقاط الانفاس ، انداح امام بصرهما منحدر هائل نبتت عليه اشجار صنوبر جبلي مائلة . وبدا المكان دافئاً ورحباً ، بشكل غير اعتيادي ، بعد المضيق المظلم الرطب . في الاسفل انبسط واد عريض ، ووراءه امتدت في المدى البعيد سلسلة جبال مجاورة في غبش ليلقي شاحب .

- راوخن * - قالت الفتاة لاهثة - راوخن قليلا !

انهد ايفان صامتاً على حافة صخرة مسطحة ناتئة من الارض . ألقت جوليا نظرة خاطفة الى الاعلى ، الى كتلة الصخور المتراصة ، ثم الى الاسفل ، الى المنحدر المشجر تتخلل صنوبراته بقع ارض بنية . واحس ايفان ، وهو ينظر اليها من تحت ، وكأن بصرها علق بشيء فجمدت ، وقد طوت احدى قدميها ، بل ونسيت أن تلبس القبقاب عليها . وعند ذاك وثب ، فقد لمح درباً

---

* قف (بالالمانية) .

يلمع بعيداً الى الاسفل ، بين اشجار الصنوبر . امسكته من ردنه خطفاً دون أن تلتفت ، وقالت :

– روسو ، مينش ! انسان !

وقد رآه هو ايضاً يصعد في الدرب الى فوق عجولا .

قعدا . وحدقت جوليا في عينيه بحدقتيها الداكنتين العميقتين تسبر غوره ، وقد نسيت الاساءة اليها ، كما يبدو . فاشاح عنها نظرته الجهماء ، وأخرج المسدس من زيقه . وفهمت الفتاة ما ينوي عليه . مس ايفان كتفها ، دون أن يوضح شيئاً ، يريد أن يقول لها : اجلسي هنا ، وانحنى هو ، ومرق الى دغل الصنوبر ، وسار سريعاً على المنحدر مزيحا في طريقه الاغصان السفلى آملا أن يطلع على الدرب .

اختار موضعاً تكاثفت فيه اشجار الصنوبر اكثر من غيره، وابتعد عن المضيق كثيراً ، وفكر في أنه ليس من اللائق أن يترك الفتاة وحدها .

كان الهواء مشبعاً برائحة الصمغ ، وكانت الارض الصخرية المفروشة بابر الصنوبر توخز بلا رحمة باطن قدميه المجرحتين اصلا . وبعد قليل طلعت من وراء كتلة الجبال القريبة اشعة شمس الصباح ، وصارت حرارتها تلذع بشكل ملحوظ . تذكر ايفان مطاردة الامس ، فسحب ترباس المسدس ، وأخرج المشط من المقبض البلاستيكي ، فوجد فيه خمس طلقات ، والسادسة

في موضع الاطلاق . وقد شجعه هذا قليلا . وفكر في احتمال أن يحصلا على بعض الثياب وما يحتذيانه ، ولربما على بعض الطعام ايضاً . وكان يتضور جوعا كالسابق ، حتى أن فمه تحلب باللعاب حالما خطر الطعام في باله ، فلم يكن يلحق في ابتلاعه .

ظهر الدرب فجأة بين أشجار الصنوبر أمامه على بعد عشرات الخطى . فتوقف ، ونظر الى الأسفل ، والى الأعلى ، لا يوجد أحد . وقف قليلا متسمعاً : رف طائر صغير مقطوم الذيل منطلقا من شجرة صنوبر قريبة مقوسة بشكل عجيب ، وعلى مسافة غير بعيدة وقع على الارض كوز صنوبر يابس ، ثم عاد الصمت من جديد . بحث ببصره عن مخبأ ، وسار قليلا ، وسقط على أرض شائكة فيها عشب خفيف ، وراء كسرة صخرة مطحلبة .

رقد ينتظر ووجهه الى الاسفل ، يلقي نظرات متلاحقة الى الدرب المتلامع بين قمم الصنوبرات، ويفكر فيما سيفعله مع ذلك الانسان . لم يكن يشك في أن أحداً من غير العسكريين يطرق هذا الدرب ، وأنه سيتخلى عن ثيابه بدون مقاومة (لأن معه مسدساً) ولكن كيف سيتصرف بعد هذا . ذلك لان ضميره لم يكن يسمح له بقتل رجل أعزل ، كما أن تركه على حاله سيكون بمثابة انتحار . الا أنه لم يستطع الاهتداء الى

حل معقول مهما أجهد فكره الذي لم يكن الآن يطاوعه كثيراً ، وشعر بأن هذه اللامحدودية لاتؤدي الى خير . ولكن مما لا نقاش فيه أيضاً أنهما لم يكونا قادرين على اجتياز السلسلة الجبلية الرئيسية وهما على حالهما الآن .

وتبين أن الرجل كان اقرب مما كان يتصوره ايفان . ظهر فجأة على الدرب في الاسفل قامته المحنية من ثقل حمله . ولكنه لم يكن يمشي ، بل يركض تقريباً، لاهث الانفاس من التعب، وعيناه تمشطان اشجار الصنوبر باستمرار ، ومن حين لاخر كان يلتفت الى الوراء . معقول أنه رآهما ؟ تصلب ايفان ، وانضغط وراء الصخرة محاولا اخفاء ثيابه المخططة ، وراح يشتم بضراوة مفاجئة ، وقد ادرك بوضوح كم هو وضيع وسافل ما سيضطر الى فعله الآن .

ولكن ذلك كان ضرورياً .

ترك الرجل يقترب اكثر ، واطبق هو قدميه بحذر ، وانقلب وراء الصخرة . تحركت نملة في كمه ، ولذعت كتفه كالقراص . كان النمساوي يحمل على كتفيه بتعب كيساً ثقيلا من المشمع ، وحين مر منقلا بعجالة حذاءه الغليظ بنعله السميك ، طلع ايفان الى الدرب بثلاث قفزات . سمع النمساوي المار حركة وراءه ، فالتفت . كان رجلا كهلا بديناً اهوج يرتدي سترة جلدية قصيرة وقبعة تيرولية لها شرابة زرقاء مربوطة

بخيط ، وسروالا مستهلكا مقبقبا عند الركبتين . رمشت عيناه من المفاجأة ، وراح يتحدث بالالمانية بكلام سريع ، مشمرا ذراعيه ، وأندفع نحو ايفان ، فـرفع هـذا مسدسه . فتمتم النمساوي :

– حضرة الاسير !.. حضرة الاسير ! لا حاجة الى مسدس ! اس‌اس !

لملم ايفان نفسه رأساً . فقد فهم كلمات النمساوي الالمانية ، ولكنه لم يرد أن يصدق بأن مصيبة تتهددهما من جديد . كانت النملة اللعينة تدب الآن بين دفتيه ، ولكن ايفان لم يتحرك لينفضها عنه ، وغرز في النمساوي نظرة صارمة لاترحم : فقال النمساوي مضطربا :

– الاس‌اس ! الاس اس هناك ! حصار .

وكان منفعلا ، والعرق يتصبب غزيراً من وجهه المنتفخ غير الفتي ، وكان صدره كالمنفاح. يصدر صفيرا وصريفا عاليا على مختلف النغمات. والتفت ايفان ، وعض شفتيه .

– أين الاس اس ؟

– هناك ! هناك . اتمنى لك التوفيق–ولوح النمساوي بذراعه .

فقال له ايفان بالالمانية :

– ألا تكذب ؟

– ناين ، ناين ! أنا انسان شريف – قال النمساوي بحماس ، ثم غير لهجته ، ونطق بلغة

روسية ركيكة – كنت اسيرا في سيبيريا .

ورف في عينيه المذعورتين شيء دافىء ، كالذكرى . وفهم ايفان أنه لم يكن يكذب . وكان يجب أن يستعجل . فقد يكتشف بين لحظة وأخرى . تلاشى آخر أمل في الحصول حتى على قطعة خبز .

فسأل ايفان بالالمانية بلهجة حادة :

– من انت ؟ ولماذا انت هنا ؟

وجذب النمساوي من كم سترته بلاكلفة مبعداً أياه عن الدرب .

– أنا من حراس الغابة . وهناك بيتي .

نظر ايفان الى الاعلى ، حيث اشار الرجل ، ولكن لم ير أي بيت ، ولكنه لاحظ جوليا تطلع من الغابة . ولعلها سمعت كلامهما صاحت :

– روسو ! روسو ! هربت ! روسو !

لم يلتفت ايفان الى صيحتها المحذرة ، ودفع النمساوي من كتفه، ثانية وانتزع الكيس من يديه.

– أكل ؟

– أوه، نعم، نعم – أكد له النمساوي – خبز.

والظاهر أن النمساوي فهم كل شيء ، تلفت، وبرك على ركبتيه بسرعة ، وجذب سحابة كيسه باصابع مرتجفة . اختطف ايفان من الكيس رغيف خبز صغيراً يابساً . لم يعترض النمساوي ، الا أنه ارتخى قليلا ، وفقد على الفور حيويته التي كانت قبل حين ، وللحظة شعر ايفان بتأنيب في

دخيلة نفسه . الا أنه كبته على الفور ، وتوجه الى شجرة صنوبر ، وألقى نظرة الى فوق ، الى القمم الثلجية الرمادية ، وتلفت فيما حوله . أخذ النمساوي يعيد سحابة كيسه ، الا أن اصابعه لم تطاوعه ليشد السحابة ، عندئذ ألقى ايفان رغيف الخبز الى جوليا التي وثبت للقائه ، وتوجه الى الرجل من جديد .

– اخلع !

نسي اسم السترة في اللغة الالمانية . ولم يفهم النمساوي ، وجذبه ايفان من كمه بدلالة . ولكن النمساوي لسبب ما لم يسرع في التخلي عن سترته . ولاح الارتباك على وجهه العجوز المحمر من تصلب الشرايين . فصاح ايفان :

– شنيلر !

وجذبه بقوة أشد .

– شنيلر ! شنيلر ، روسو ! – نادته جوليا من حرش الصنوبر ، بصوت مكتوم ، ولكنه هالع . فخلع النمساوي سترته بعد أن أوهنت الخيبة كل كيانه . وأخذها ايفان من يديه بما يشبه القسر . ونظر في عيني هذا الرجل للمرة الاخيرة . وكان ايفان يدرك أن ذلك كان جحودا سيئا من جانبه ، ولكن لم يكن في مقدوره أن يتصرف غير ذلك .

ركض الى حرش الصنوبر ، حيث كانت تلوح سترة جوليا المخططة . وبعد أن أبتعد قليلا ،

التفت فرأى النمساوي واقفاً في مكانه السابق في حمالة بنطلونه الزرقاء فوق قميصه الفاتح، وقد اسبل ذراعيه ، وراح ينظر في اثرهما . وفات ايفان الى الابد أن يعرف ما تنطوي عليه نظرته هذه .

— ٨ —

ركضا الى فوق بكل ما لهما من قوة .

وبعد ربع ساعة ترطب وجهاهما بالعرق ، وصارت خطواتهما اقصر . فقد ادركهما الانهاك . انتهت غابة الصنوبر . فصعدا منحدرا معشوشبا خفيف الانحدار . والظاهر أن حد الغابة العلوي هنا ، وبعدها كانت تتدلى صخور جرداء مطحلبة، وجلامد كبيرة ، بينما لاح في الاعالي ، في شاهق السماء ، عرنين الجبل الرمادي الشبيه بجناح طائر الحجل مرقطا بالثلج . كان الارتفاع يشتد ويشتد ، منغرزاً الى الامام في الجدار الصخري ، وقد أدرك ايفان لدى اقترابه منه أنه لن يستطيع بلوغه . عندئذ انعطف ، وركض بمحاذاة هذا الحاجز الجبار بحثاً عن موضع مناسب للاختفاء . فقد كان الشك يعذبه دائما — احتمال وقوع كل شيء الآن من النمساوي . وردد ايفان في سره «كل شيء الا الكلاب ، كل شيء الا الكلاب !» — وهو يعي بوضوح لا فرار منه أن هروبهما سيستحيل لو يطلق الالمان الكلاب .

كان ايفان ينظر الى الاسفل من حين لآخر ، وهو يتابع ركضه على المرتفع ، فيرى المنحدر المشجر كله مكشوفا وكأنه على راحة يد : المضيق العريض ، حيث قضيا ليلتهما ، وغابة الصنوبر ، حيث يحتمي في حافتها بيت ذو واجهة حجرية عالية ، ورواق خشبي طويل بمحاذاة الجدران، والظاهر أنه ضيعة حارس الغابة .
كان ايفان يتوقع من لحظة الى أخرى أن يظهر الالمان هناك ، ولكنهم قد تأخروا ، لسبب غير معروف ، وبقي المكان عند الضيعة خاليا وصامتا. كما أنه لم ير حارس الغابة ايضاً ، والظاهر أنه لم يصعد بعد من الاسفل . وفي تلك اللحظات القليلة المتوترة لعن ايفان اولئك الذين اجبروه على الاقدام على هذه الفعلة . فهل هو قاطع طرق حقاً أو ناهب ؟ وما حاجته الى أن يوقف ذلك البدين المسالم ، ويهدده بالمسدس ، والاكثر من ذلك أن يسلبه ، لو لم تكن الحرب ، والأسر، وتلك الاستهزاءات والاهانات التي لا حصر لها ، واخيراً ، لو لم يكن ، ما عزم عليه من أجل حياته، ومن اجل جوليا ، ومن أجل ذلك النمساوي ايضاً؟

في إلتفافهما حول الصخور في مرج معشوشب صعدا الى حدبة من الارض ، ورأيا في الجدار الصخري غير بعيد عنهما شقا ضيقا في فلع كان يتغلغل عميقا في بطون الصخور . وقد سر ذلك ايفان . وفكر في احتمال ، أن يكون هناك جدول

يمكن ان يضيع الاثر ، كما انهما بحاجة – وهذا ما شعر به – الى ما يختبئان فيه ، لان الألمان يمكن أن يظهروا من لحظة الى اخرى . ركض ايفان على العشب باقصى قوته ، وركضت جوليا في اثره متعبة ، ولكنها كانت تغالب تعبها بصبر.

وسرعان ما وصلا الى الفلع ، وقد تجرحت اقدامهما في اعشاب الرودندرون الشائكة ، ولكن لم يجدا جدولا ، مع الاسف . بل وجدا مكانا اجوف على الطبيعة يسوده ظلام رطب خانق ، وتتدلى من جدرانه الصخرية نباتات شائكة ، وتبرز من الشقوق بين الصخور خصلات عشب شائكة . وفي الاسفل تتناثر عظام قديمة . رفرف طائر ليلي ، واندفع الى باطن الفلع بصفير . وقد افزعه وجود بشر . وبدا ذلك المكان نابيا بهما الى حد كبير ، ولكن ايفان اطمأن بعض الشيء لانهما لحقا أن يصلا الى هذا المكان ، على اية حال ، ويختفيا . ابطأ خطوه ، وصعد بلاطة صخرية مطحلبة ، وانتظر جوليا ، كانت هذه الفتاة تركض على الصخور نحوه موازنة نفسها بذراعيها ، وقد تشربك شعرها الاسود القصير، وتوهج وجهها من الركض والتعب ، وحين نظرت الى ايفان رف في عينيها فزع بدلا من ذلك العبث المألوف فيهما . سألت جوليا :

– يا سانتا مادونا ! يعني نحن فلت ؟

فقال ايفان في نفاد صبر :

– استعجلي !
لم تفهم الفتاة كلامه فسألت :
– ما يعني استعجالي ؟
لم يجب ايفان . اقتربت جوليا ، وهي تلهث، فواصلا سيرهما متنقلين على الصخور .
قالت الفتاة بفرح :
– فاتير لطيف كثير ! شيوعي !
فرد ايفان في ضيق :
– أي شيوعي ! مجرد انسان .
فوافقت الفتاة قائلة ، وهي تطلع الى الامام.
– سي ، سي . انسان ، انسان لطيف .
وكان ايفان في ذلك الوقت يرهف سمعه ليلتقط الاصوات الآتية من الاسفل ، غير قادر في الوقت ذاته أن يصرف بصره عن الرغيف الذي تطبق الفتاة عليه ذراعها . وقد شعرت جوليا بنظرته غريزياً ، فالتفتت :
– ايسين ؟ خبز ، ها ؟
وقطعت بسرعة حافة من الرغيف ، وقدمتها لايفان . تناولها ايفان دون تردد ، وقضمها مرة ثم أخرى بنهم ، وابتلعها ، كان يجب الاسراع . فقد كان من الممكن أن يظهر الالمان من الوراء لحظة بعد أخرى ، ولكنه لم يستطع صرف تفكيره عن الخبز ، وصار عبوسا متباطئا . وقد فهمت جوليا ذلك فتوقفت ، وقعدت ، ضامة الرغيف على صدرها ، وباصابع سريعة قطعت منه كسرة

ومدتها بلطف الى كفي ايفان الكبيرتين المتصلبتين . والفتات التي تساقطت على حافة سترتها جمعتها بعناية في اطراف أصابعها ، وألقتها في فمها .

وحين تناول ايفان قطعة الخبز بحرص ، أدارها في يده ، وكأنه يتفحصها ، وحدج الرغيف بنظرة شزراء ، وأخذ يكسر القطعة بعناية الى قسمين . وبعد أن وازنها في كفيه قدم أحد القسمين الى الفتاة . لم ترفض هذه ، وضحكت ضحكة مقتضبة ، وتناولته بسرعة :

— دانكه . نو ، غراتسيا ، يعني شكرا .

لم يرد على شكرها ، وهو يمضغ الخبز بنهم.

وواصلا السير . وأخذت جوليا تأكل ايضا صامتة ، ولكن الخبز كان قليلا جدا ، وكسره الضئيلة دغدغت شهيتهما ، لا غير . وبعد قليل استدارت جوليا الى ايفان بحدة :

— روسو ! تعال ناكل كله كله ، سي ؟

وأطلت الحيوية العابثة السابقة من شقي عينيها المرحين ، وانغرزت اصابعها في الرغيف المقضوم ، متهيئة لتقطيعه ، وفزع ايفان ، وقد شعر بأنها ستفتت بالفعل مؤونتهما الاحتياطية وهي أقل من أن توصف بالضئيلة . امسك يد الفتاة خطفا .

— هاته !

رفعت حاجبيها استغرابا ، فاختطف ايفان

الرغيف من يدها ، ولفه بالسترة بسرعة . ارتبكت الفتاة في البداية ، وبعد ذلك ضحكت فجأة . فنظر ايفان اليها بحيرة :

– ماذا بك ؟

– روسو صحيح ! جوليا لا يوثق بالخبز ، جوليا يوثق بالكلام ، يوثق بالغرام . بالخبز جوليا لا يوثق . جوستو . صحيح روسو !

ودنت من ايفان من الخلف ضاحكة ، ومست دفتيه بكفها مسا خفيفا . وحين شعر ايفان بدعابتها غير المتوقعة هز كتفيه بحراجة .

– طيب – غمغم ايفان وهو ينوي مواصلة السير ، ولكن طلقة بندقية بعيدة هدرت في تلك الاثناء مرجعة الصدى ، فالتفتا ، وجمدا في مكانهما على الحجارة .

وصدرت صيحات من ناحية الضيعة في الاسفل ، ولعلعت رشاشات «شمايسر» على الفور ، وسرى الهدير فوق المضيق ، وانداح الصدى . وانكمش ايفان ، وكان يرهف سمعه مخافة أن يندفع من هناك النباح الضاري الذي يعرفه . ولكن لم يصدر نباح . ولم تصعد الطلقات الى الفلع . وكانت الصليات تلعلع في ناحية بعيدة ، لسبب لا يعرف ما هو ، وقد ادهشه ذلك قليلا . أستمع بضع لحظات ، وألقى السترة على صخرة ، وصعد الى فوق ليطل من الفلع واضعاً قدميه

على النتوءات والشقوق في الصخر ، متشبثا في رؤوس النبت .

كانت الصليات تهدر ، تلعلع ، ويتطاير الرصاص الى فوق ، وفي هدير الطلقات صارت تسمع فرقعة موتوتسيكلات بعيدة . دفعت جوليا رأسها الى الخلف ، وأصغت بارهاف ، وراحت تراقب ايفان الذي كاد يصل الى منتصف الجدار المنتصب . التفت الى الوراء حين خرج من الفلع، وزحف مسافة قليلة أخرى ، وسحب رأسه بين كتفيه ، وجمد ، بعد أن رأى في البعيد الضيعة والموتوتسيكلات . اختطفت جوليا السترة ، وألقت القبقاب عن قدميها ، وهتفت بشيء ، ولكنه بدا وكأنه قد التصق بالصخر ، وثبت بصره في المنظر الذي كان طرفه يلوح اليه من عل.

في اشجار الشوح القليلة امام الضيعة كانت ثلاثة موتوتسيكلات تتحرك في العشب ، ورشاشاتها توجه نيرانها الى نقطة في الاعلى . كما أن بضع موتوتسيكلات أخرى تهدر في مكان ما ، وهي تحاول الصعود أعلى ، كما يبدو . ولكنها لم تكن ترى من خلف نتوء الصخر . وكان واضحاً أن الالمان كانوا يوجهون نيرانهم وكل انتباههم الى جهة مغايرة من الفلع . وكانت وتائر اطلاق النار تدل على أنهم كانوا يرون الهدف .

وأثار تصرف الالمان تخمينا غامضا . تقدم ايفان قليلا في ناحية ، وصعد أعلى مختبئا وراء

بروز الصخر ، واذابه يرى جيدا كل ماكان يحدث هناك .

هتفت جوليا بشيء في الأسفل ، ولكنه لم يسمعها . انشب أصابعه في البروز الصخري ، وراح ينظر الى شخص في ملابس مخططة يركض على المنحدر باتجاه الجدار الصخري بخطوات عريضة من ساقيه الطويلتين . وكانت الرصاصات المرتطمة بالصخر تثير بعض الغبار حوله . كان المعتقل يسقط ، ولكنه يقفز حالا ، ويركض ليسقط بعد بضع ثوان . ترك ثلاثة من الالمان موتوتسيكلاتهم قرب الضيعة ، وجروا الى الاعلى وراءه، وان كانوا على بعد، بينما راح الآخرون في نفس الوقت يطلقون النيران من رشاشاتهم فوق رؤوس الصاعدين . كانت النيران كثيفة جدا ومتناسقة ، الا أن المعتقل ظل يركض ، وكان يلتفت احيانا ، بل ويصرخ بشيء ، على ما يبدو ، ثم يسقط ، وكان ايفان في كل مرة يقول في سره : لن ينهض بعد الآن ! ولكنه ينهض ! ما ان تخف النيران ، حتى كان المسكين ينهض ، ويصعد الى فوق .

كانت جوليا تسأل ، وهي تضرب الصخر بقدميها من نفاد الصبر :

— روسو ! روسو ! ماذا تعاين ؟ روسو ؟

ظل ايفان يراقب الهارب بصمت خائفاً أن يتحرك على الصخرة ، معتبرا مصير ذلك الشخص

قد حسم . وبالفعل سرعان ما سقط المعتقل مرة أخرى عند الصخرة تقريباً ، واختفى من النظر بعدها ، وسكت اطلاق النار رأسا .

واحس ايفان وكأن وكأن أحشاءه قد تمزقت. فنزل من على الصخر مسرعا الى الاسفل ، ممتننا في سره للقدر الذي اتاح لهما الحماية في هذا الفلع وقفز على الارض يخامره احساس ثقيل ، وابلغ جوليا باقتضاب :

— انتهى .

فتحت الفتاة عينيها واسعتين ، وسألت دون ان تفهم :

— انتهى ؟

— رفيقك انتهى .

— قتل ؟

— نعم .

قالت بذهول :

— ياه ، ياه .

تناول ايفان السترة منها ، التقطت الفتاة قبقابها بخفة ، وأخذ الاثنان يصعدان على الصخور الى فوق .

— ٩ —

وعلى أية حال لم يستطيعا التسلل دون ان يكشفا عن انفسهما فقد خلفا وراءهما شاهداً ، وعاد القلق السابق فاستولى على نفس ايفان

بدفق جديد ، فمن يدري هل سيشي بهما النمساوي ام لا ؟

كانت تجربة كل هروباته تدل على أن مثل هذه الملابسات بالذات غالباً ما تكون وبالا على الهاربين . فان المخاطرة التي كانوا يتعرضون لها اثناء تسللهم الى قرية او ضيعة أو عزبة ، واثناء التقائهم بناس ، لن يتعرضوا لها في اي مكان آخر في الحقل كانوا أم في الجبال أم في الطريق. فقد كان الخطر في تلك الاثناء بالذات يترصد حتى المتبصرين جدا ، بل والمغالين في الحذر . وفيها كان غالبا ما تنتهي طرق الحرية الصعبة للغاية ، وتبدأ طرق أخرى اكثر تعذيباً — طرق العودة الى الاسر . ولكن تحاشي الناس كليا كان مستحيلا ، فقد كان على الهاربين أن يتغذوا ، ويعرفوا الطريق ، ويغيروا ملابسهم . وغالبا ما يعول الهاربون على الاحتمال ، وعلى الفرصة الحسنة ، والشعور الانساني . وفي احيان غير قليلة كان الحظ يحالفهم ، ولكن ليس دائما أبدا.

قبل عام امل ايفان أيضاً أن يوفق ، مثلما وفق في الايام الاثنين والثلاثين التي سبقت . فقد أفلح اربعتهم بشكل جيد في تخطي الكمائن، وعبروا انهارا ، والتفوا حول قرى ، وتحاشوا الالتقاء بالشرطة العملاء وافلتوا من المطاردة مرتين ، ولو أنهم فقدوا رابعهم ذات مرة . وهو جندي الدبابات فاليري من أهالي لينينغراد .

ووصل البقية الى ديارهم ، الى قولينا . كانت القرى الاوكرانية تحيطهم من كل جانب ، والفلاحون يحرثون حقولهم على الخيول والثيران ، وصار الجو دافئا ، وكان في الامكان المبيت في الغابات والاستغناء عن خطر الدخول الى قرية لولا حاجتهم الى الطعام التي كانت تضطرهم بين الحين والآخر الى دخول القرى .

في ذلك الصباح دخل ايفان القرية بعد أن أبقى اصدقاءه في طرفها اذ ان الآخرين قد ذهبوا قبله والآن جاء دوره .

وكان قد تأخر قليلا في خروجه من الغابة التي ساروا في طريقها المتعرج ليلا . وكان الفجر قد بدأ يتنور ، ولكن ايفان لم يرد أن يتوغل في العمق ، ومعدته فارغة . وقد تفحص القرية جيداً من مكانه في طرف الغابة ، فلم يلحظ فيها شيئا مريبا . وأتضح له أن المنطقة المجاورة خالية من اي طريق عام ، فاضطر الى خوض مستنقع صغير ليصل الى البيت الأول ، سار لصق الاجمات قدر الامكان ، وكان يحمل تحت ثيابه رشيشة ألمانية في خزانها عشرون طلقة غنمها عند كراكوف ، وينتعل حذاء عسكريا طويل الساق ويضع على كتفيه جبة فلاحية اوكرانية بسيطة تشبه في ظاهرها ما يلبسه جميع الريفيين هنا عادة ، ووصل الى الحاكورة بلا معيق، ثم استدار من سقيفة الدريس في درب بين

الاسيجة الى اقرب بيت . ومن حسن الحظ أن هذا البيت كان يقع في الجانب المقابل من الشارع ، وتلفت ايفان ولم ير أحدا على مقربة ، سوى أنه سمع صريف باب في الفناء ، وخوار بقرة ، فلا بد أن صاحبة البيت ذهبت لتحلب البقرة ، وما كاد يعبر الطريق المندى حتى خرج رجل من الفناء المجاور الى الشارع . ودون ان ينظر اليه ايفان شعر بأن الرجل قد لحظه . نظر ايفان الى المنعطف فلم يجد أحداً في الشارع ، ولكن سيارة لها حوض هائل من المشمع كانت تقف عالية قرب بيت في الجهة المقابلة . وكان وجودها هذا غير مناسب ، لا سيما وأن اصواتاً ارتفعت في الفناء هلعة . ولم يكن امام ايفان من منفذ (كانت وراء البيت حاكورة مسيجة) فاندفع في الباب المؤدي الى الرواق . فرأى فلاحا في اواسط العمر يقف عند الباب ولعل الفلاح فهم كل شيء بدون كلام ، فلم يبد منه سوى شحوب قليل ، والظاهر أنه سمع صيحة ، فنظر الى ايفان الذي كانت تنتفخ اذيال جبته ، وتراجع خطوة ليتركه يدخل البيت . وثب ايفان دون اية كلمة الى الرواق النظيف المرتب الذي يتناثر نبات السمار على أرضه، واندفع هنا وهناك باحثا عن مخبأ ، ولما لم يجد شيئا مناسبا مرق عبر الباب المفتوح الى حجرة أخرى، فيها موقد ورأى الوجاق الاسود ، فقعد على ركبته ، وألقى نظرة سريعة

في النافذة ، وبالقرب منها تخت مغطى ببطانية من نسيج بيتي برزت منها ثلاثة ازواج من سيقان قصيرة لاطفال . واستولى على ايفان هاجس مزعج بأنه أخطأ فلم يقع في المكان المطلوب .

ولكن الوقت كان قد فات . تردد في الفناء وقع احذية عالية فضغط ايفان جسمه في الوجاق الضيق المسخم وراء نتوء ، موجعاً جنبه . دخل الرواق اشخاص ، وماكاد ايفان يحبس انفاسه حتى ترددت أصوات غريبة على الفور ، وتبين أن هناك ألمانيين او اكثر . وكان رب البيت لا يفهم كلامهم او لا يريد أن يفهم . وقد سمع ايفان كل شيء ، ولم يكن بحاجة الى مترجم .

كان الألماني يصرخ بلغته :

— من هو ؟ من الذي كان يركض ؟

وكان الثاني يصر :

— قبل قليل رأيته بنفسي .

رد رب البيت بالاوكرانية :

— ياسادة ، أنا لا افهم . لا يوجد عندي أحد ، ما هذا الكلام !

وارتخى توتر ايفان رأسا ، يعني أن رب البيت لا يشي به ، وحمد الله على أنه وفق في هذا على الاقل . ولربما لا يجدونه الآن . فانضغط على الحائط اكثر ، وكور جسمه تماماً ، يكاد يحبس أنفاسه . أخذ الالمان يزعقون أعلى ، ويشتمون ، وأنشأ طفل يبكي في ركن ، قفزت

إمرأة على الارض ، من الموقد ربما ، وهرعت اليه ، وأخذت تهدهده . صلصل أحد الالمان بترباس البندقية ، ودخل البيت راكضاً ، ومرق ظل قرب الموقد . أخذ الاطفال يصرخون اكثر ، وطقطق التخت . حين قذف الالمان افرشتهم . وانتظر ايفان ممسكاً بمقبض رشيشته ، رغم أنه لم يكن يعرف كيف سيرمي وهو في وضعيته هذه . وتقدم الالمان من الموقد قارعين الارض باحذيتهم الثقيلة ، ونظروا فيه ، وخركوا غطاءه، ومرق شعاع مصباح يدوي على الفور الى جدار الوجاق الخلفي ، حتى أن ايفان قلص عينيه متوقعا أن يصيح أحدهم «اطلع !» ولكن شعاع المصباح كان هزيلا (من نضوب البطارية كما يبدو) فلم ير الالمان شيئا ، وابتعدت أصوات الاحذية. وسرعان ما خف وقع الخطوات، والظاهر أن الالمان كانوا يفتشون في الرواق . وعندها زفر ايفان ، ولكن دون أن يتململ ، ثم استنشق الهواء ببطء غير مصدق بما حدث ، وبأن الخطر قد انقشع . وبالفعل تلاشى وقع الخطوات تماما ، ولم يبق الا نشيج الاطفال قرب الموقد ، واندفعت الام ، وهي تطرق الارض بقدميها الحافيتين لجهة النوافذ ، على ما يبدو . كانت اللغة الالمانية تتردد الآن في الفناء ، حيث كان رب البيت يتحدث بشيء موجها الجنود بعيدا عن بيته ، على ما يظهر . وهدأ كل شيء بالفعل . ودخل رب

البيت الرواق ، كما يبدو ، وهرعت المرأة اليه ، وتمتمت بكلام سريع جدا ، تكاد تبكي من الارتباك ، ولكن الزوج صرخ بها صارما : «كفى! اسكتي! » فسكتت المرأة ، وعادت الى البيت ، وانشغلت بالاطفال .

أراد ايفان أن يخرج من مكمنه ليتوجه الى مكان آخر أكثر امانا ، واذا بربة البيت تصرخ بالاوكرانية مذعورة :

– بيتــرو ! بيتــرو ! أوه ، مصيبة ، جاء غريتس ...

همد ايفان من جديد ، وخرج رب البيت ولبرهة لم يسمع له صوت ، وبعد ذلك صدر صوت بلهجة احترام ساخرة : «نهارك سعيد ، ياهر بيترو !» رد رب البيت على التحية بتحفظ وصدر صوت مثل قرع سوط على جسد ، وقال نفس الصوت بلهجة اعتيادية ، وكأنما الحديث يدور حول شيء لا اهمية له :

– من تخفي ؟ طيب ، هاته الى هنا .

– أنا لا اخفي أحدا ، اتق الله ، يا عراب غريتس !

– آها ، طيب ! سنتأكد ! هانا ! – صاح غريتس .

قالت ربة البيت من العتبة :

– أنا هنا .

– اعترفي ، من يخفي بيترو !

— اوي ، وهل أنا اعرف ! لا أحد ، يا عراب غريتس .

— لا تعرفين ! طيب ، يا ناستوسيا ، دليني أين خبأه ؟

صدر صوت طفولي خائف :

— لا اعرف .

فقال غريتس بلهجة هادئة كثيرة الدلالة :

— لا تعرفين ! سنرى .

وتنملت وجنتا ايفان من الحنق على هذا الهولة وهو في مكمنه في الموقد لما تملكته من رغبة قوية في الوثوب عليه ووضع عشر رصاصات في بطنه . ولكنه لم يكن يعرف كم من الاذناب الى جانبه ، واستولى عليه من جديد هاجس خبيث فقد ادرك أن هذا ليس ألمانيا ، وأنه يعرف عمله بشكل ممتاز .

— يا اطراش ، هات القش ، وانت ايضا ، يا جوبان . سنعرف الآن أين يختبىء. وسنعتقله.

ترددت خطوات ثقيلة في الفناء ، وانغلق باب على مقربة . والظاهر أن هؤلاء توجهوا الى السقيفة . وحدس ايفان ما عزم عليه هذا الملعون غريتس ، وفكر في عذاب : «هل يعقل أن يقدم على احراق البيت ، هل يعقل أن يسلك الوغد هذا السلوك مع صاحبه الذي يسميه عرابا ؟»

خشخش شيء تحت النوافذ ، وبهت النور في الموقد ، وقال ايفان في سره : «أظنهم وضعوا

القش» . وبعد ذلك هدأ كل شيء ، ولم تعد تسمع خطوات ولاكلام . وفجأة صرخت المرأة باستماتة ووحشية ، حتى ليتصور المرء أنها هي نفسها التي ستحرق ، لا البيت . وتصايح الأطفال في أثرها ، وتصاعد الدخان رأسا . وادرك ايفان أن كل شيء قد أنتهى ، وأنه سيحرق أيضاً ، ويهلك الاطفال ايضاً . وقد توجب أن يخرج من مكمنه ، ويطلق النار على هذا الخسيس ، ولكن الأمل ما يزال يراوده، بأنهم لن يقدموا على حرق البيت ، بل مجرد تخويف . ومع ذلك فانه سيكون عقابا قاسيا جدا له وللعائلة لو أنه ترك البيت يحرق ، وبعد ذلك يخرج منه ! ولم يعرف ايفان ماذا يفعل ، ولو أنه كان يدرك أن عليه أن يقدم على شيء ما في الثواني المعدودات التالية .

والظاهر أنه كان سيثب من الوجاق (وقد تهيأ لذلك لو لم تندفع ربة البيت الى البيت فجأة مرددة التعاويذ واللعنات . وقبل أن ينتبه الى حقيقة الامر طبطبت المرأة بقدمها قرب الموقد ، وأنحنت ، وصاحت من خلل الدموع :

— اخرج ! اخرج ! يحرقون البيت بسببك ، يا ملعون ! من أين طلعت لنا ؟ اخرج !

وزفر ايفان مستراحا . ها أن كل شيء قد أنتهى . (رغم أنه لم يكن يتوقع مثل هذه النهاية) دس الرشيشة في ركن تحت الزبالة ، وخرج . ولم يكن حانقا على المرأة ، ولكنه شعر بالقهر

والاسف على أن يختتم مثل هذا الطريق الطويل الصعب بهذه الطريقة البلهاء .

وقف على العتبة زاهدا في كل شيء وهادئا . وفي الفناء حدق فيه كالذئاب اربعة رجال كان يبرز بينهم بشكل خاص رجل مديد القامة ضخم يرتدي بنطلونا قصيرا فاتح اللون ، على كمه ربطة زرقاء . انه غريتس ، كما يبدو . كان يحمل قربينة ألمانية بهيئة الاطلاق . وقد عرف ايفان ذلك من وضع الترباس ، وفكر في أنهم لن يجسروا على قتله في مكانه ، ولكنهم يسلمونه للالمان .

وهذا ما فعلوا .

— ١٠ —

كان ايفان يتلفت شاعرا بالنذر باستمرار ، خائفا أن يطلق الالمان الكلاب ، ولكن الوقت كان يمر ، وما يزال المكان ساكنا فيما حوله . عندئذ وأتته الثقة بأن النمساوي لم يش بهما ، على كل حال ، ولم يعثر راكبو الموتوتسيكلات على أثر لهما ، فتركوا الهاربين بسلام حاليا . وفي الوقت ذاته حملوا جثة المجنون ، كما يبدو ، وصار لهم ما يعودون به . وبهذه الافكار تسرب القلق المفزع بالتدريج ، مخلفا في مكانه مشاغل وافكاراً أخرى.

كان الفلع الشبيه بدهليز عميق أعوج يضيق بالتدريج ، ظل يصعد بهما الى فوق . وقد زحفا

في قاعه أربع ساعات ان لم يكن اكثر دون توقف . وصار الجو باردا ، وصمت اذانهما قليلا من الارتفاع ربما . والشمس بقيت محجوبة لم تطل الى هنا ولامرة واحدة ، واخيرا اختفت وراء الغيوم زرقة السماء المتألقة وساحت غمائم الضباب الرمادية فوق الفلع سريعاً متشربكة في ذرى الصخور العالية الحادة . هبت ريح خفاقة متزايدة الشدة من مكان ما ، وبرد الجو بحيث لم يعد المشي يجلب دفئا . ولم يكن في وسعهما أن يريا من مكانهما كم ابتعدا من المدينة ، ولكن ايفان كان يشعر بأنهما توغلا في الصعود ، والا لما اشتدت البرودة بهذه الدرجة . ومع ذلك لم يلبس ايفان السترة التي لف بها رغيف الخبز، فقد كان يدرك أن الشيء الاهم ما يزال قدامهما ، وأن البرد سيشتد اكثر ، وقد يضطران الى السير على الثلج. والحقيقة أن ايفان لم يكن يقلق على نفسه كثيرا ، فقد كان في امكانه أن يسير اسرع . ورغم تعبه ووجع قدميه اللتين اضرت بهما الصخور ، الا أنه ما يزال قادرا على اكثر من ذلك ، فقد كانت تسعفه مرات عديدة قوته الطبيعية وتلاؤمه مع ظروف الحياة ، اضف الى ذلك ، بالطبع ، تصلب عوده في نظام الجيش الصارم وكم من مرة صمد في الاسر ، بينما كان الآخرون تنهك قواهم ، ويضعفون ، ويتهافتون من الجوع والتعب والارق . وقد أخذ يفكر بالفعل

أنه في هذه المرة ايضاً سيصمد على نحوما ، ويجتاز السلسلة الجبلية. (ولا يمكن الا يجتازها) شريطة أن تكتب له الحياة ، ويتحمل ، ويقوى على كل شيء مطلق السراح ، لا في المعتقل .

لكن جوليا ...

كانت هذه الفتاة تدب خلفه بمثابرة ملحوظة، وهي الآن لاتكاد تتأخر ، ولكنه كان غالبا ما يتوقف ، وينظر اليها مختبرا ومتوجسا . وكانت جوليا تحاول أن ترد عليه بابتسامة في كل مرة شاعرة باهتمامه ، وتتظاهر بأن كل شيء على مايرام ، وأنها لاتخاف شيئا ، وأن قواها لم تنفد بعد . الا أن تباطؤ الحركة الذي لم يكن يناسب طبيعتها الفوارة كان شاهدا بليغا على تعبها المفرط .

واخيراً رأيا ، بعد طلوعهما من منعطف ، أن الفلع الذي كان يأويهما قد انقطع بالتقائه بصخرة شديدة الارتفاع . وكان عليهما أن يصعدا — رغم كراهيتهما لذلك — الى فوق على الصخور الجرداء المعرضة للريح .

استدار ايفان على المرتفع الحاد الارتفاع ، وتسلقه الى نقطة تكاد تكون أعلى نقطة فيه ، وثنى ركبة واحدة ، وانتظر جوليا . وكانت تصعد ابطأ منه قليلا منكسة رأسها . اسند ايفان قدمه الى نتوء ، ومد لها يده . شدت اصابع الفتاة الرقيقة الناعمة عليها ، فرفعها الى فوق .

تسلقا طنفاً صخرياً أجرد شديد الارتفاع ، ولكنهما لم يلحقا أن يريا شيئا حولهما . لطمت صدريهما رأسا ريح دفاقة . وانهمرت من الاعلى غمائم الضباب المهلهلة ، وعمت كل شيء حولهما ، وغطت السماء سحابة ممطرة عاصفة ، واحتوتهما كبخار بارد . صحيح أن الضباب لم يكن كثيفا ، فكانت تلمع في ثغراته النادرة هنا وهناك صخور جهماء ، وانقشاعات زرقاء بعيدة ، ولكن كان من المتعذر عليهما معاينة المكان . عند ذاك توقفا . اسندت جوليا كتفها على بروز صخري . وكانت الريح تعبث بثيابها ، وتبعثر شعرها . وازداد البرد اكثر . بسط ايفان على الارض السترة المحكوكة من الجلد الاصفر ، واخرج منها الخبز، وتقدم نحو جوليا .

— لا ، لا! أنا يدفي .

قالت ذلك ورمقته بعينين سرت فيهما الحيوية فجأة ،ومدت يدها لمقابلته . ألقى ايفان السترة على كتفيها صامتاً . التفت الفتاة بها ، وانكمشت، وسحبت رأسها في الياقة . جلس ايفان الى جانبها .

— ايل بانه — خبز ! — قالت وقد فهمت نيته ، وبلعت ريقها . تفحص ايفان رغيف الخبز اولا ، ولقفه في يده وكأنما يخمن وزنه ، وحصة الحد الادنى التي من الممكن أن يسمحا لانفسهما بأكلها في هذه المرة ، وزفر . فقد بدا الخبز

ضئيلا جدا . قعدت جوليا على الارض ، ودنت منه . خشي ايفان أن يفتت رغيف الخبز ، فلم يكسر منه شيئا ، بل رفع شظية صخرة حادة ، وقاس ، وأخذ يقطع قطعة صغيرة . راحت الفتاة تراقب حركة اصابعه طيعة وفي عينيها حنان بهيج ، وترى كيف يقطع ويقسم ما قطعه الى قسمين ، مقتطعا شيئا من أحد القسمين ليضيفه الى الآخر .

— حسن ؟

— سي ، سي . هسن .

ومن جديد أختفى البرد والتعب ، وكأنهما لم يكونا . تألقت عينا جوليا ، وهي تنتظر بنفاد صبر متى سيتقرر أن تأكل حصتها . ولكن ايفان وازن القطعتين مرة أخرى بتأن يحسد عليه ، وعند ذلك فقط قال للفتاة :

— طيب ، استديري .

فهمت ، واستدارت بسرعة دون أن تخرج يديها من تحت السترة . فمس ايفان باصبعه القطعة التي فيها زيادة ، وسأل :

— لمن ؟

— للروسو !

قالت باندفاع ، والتفتت . فتناول ايفان القطعة الصغيرة فاختطفت هي القطعة الثانية اسرع قليلا .

— غرا ... شكرا ، روسو !

قال ايفان :
– لا شيء يشكر عليه !
– روسو ! – نادته جوليا ، وهي تمضغ بسرعة ، وتتدثر بالسترة–ما اسمك؟ يفان ، ها؟
أكد ايفان بشيء من الدهشة :
– ايفان .
لاحظت دهشته فضحكت دافعة رأسها الى الوراء :
– ايفان ! جوليا حزرت ! كيف أنا حزرت ؟
– ليس صعبا .
– كل ، كل الروسو ايفان ؟ صحيح ؟
– ليس كلهم ، ولكن الكثيرين منهم .
قطعت ضحكتها ، وتنهدت بتعب ، ولمت طرفي السترة بشدة ، واختلست النظر الى بقية الرغيف . وقد لحظ ايفان نظرتها البليغة هذه ، وهو يتم أكل قطعته ببطء ، وتناول الرغيف ليحشره في زيق سترته ، ولكن ما ان زرر السترة ، حتى ارسلت جوليا آهة تعجب مفاجئة ، وجمدت في مكانها بذهول . نظر ايفان الى الفتاة، وهو يستشعر شيئا غير مريح ، ورأى في وجهها فزعا ، فقد ثبتت عينيها المفتوحتين بسعة بشيء فوق رأسه ، فالتفت ايفان ، والخبز ما يزال في يده ، ورأى على الفور ما افزع جوليا.
على مسافة غير بعيدة كثيراً كان أسير معتقل رهيب المنظر يجلس في مكان أجرد على

صخرة مستنداً على ذراعيه المتباعدتين . كانت جمجمته الصلعاء على رقبته النحيلة تبرز من الياقة العريضة لسترته المخططة التي تلوح رقعة الرقم سوداء عليها . وكان وقبا عينيه الاسودان يحدقان فيهما لايريمان، كالممغنطسين. وحين رأى الخبز في يد ايفان ارتعد، وأخذ يصيح بالالمانية بصوت مبحوح قافزا على البقعة :

– خبز ! خبز ! خبز !

ثم قطع صياحه فجأة ، وانكمش ، وقال بصوت انساني تماما مفعم بالاستماتة :

– اعطني خبزاً .

– يا لطلبك البسيط ! – سخر ايفان ، وهو ينظر اليه .

ترقب المجنون بضع لحظات ، وأخذ يصرخ بضراوة مفاجئة ، وبلغة ألمانية :

– اعطني خبزا ! اعطني خبزا ! سأبلغ الغستابو ! هات الخبز !

– آه ، الغستابو ! – ونهض ايفان على قدميه – هيا ، اغرب من هنا ! اسرع !

وتقدم من المجنون مهددا ، ولكن ما ان خطى بضع خطوات ، حتى وثب هذا من مكانه على الصخرة ، وتراجع راكضاً الى الاسفل بخفة مدهشة .

– اعطني خبزا ، ولن ابلغ الغستابو ! واذا رفضت ابلغت الغستابو !

- آه ، ياكلب !

صاح ايفان به مهددا . استولى عليه الغيظ ورغب في ملاحقة المعتقل ، ولكن هذا ابتعد اكثر للاحتياط . وحين رأى ايفان قد توقف ، توقف هو أيضاً :

- اعطني خبزا !..

دس ايفان يده في زيقه . وجمد الالماني مترقبا . اختطف ايفان المسدس ، وسحب الترباس .

صاح المجنون مذعورا :

- مسدس !

واندفع الى الخلف .

عض ايفان على شفته . وثبت جوليا نحوه من خلفه وطالبت مرتعبة :

- أعطه خوبز ! اعطه خوبز ! لا غستابو !

«تافه مباع - فكر ايفان ، وهو ينظر بحنق الى الالماني المترنح - التمازح معه غير مأمون بالطبع . يصرخ ويكشفنا لرجال الاس أس . وماذا تحصل من الاحمق ! ثم أن قتله يثير الشفقة ، والتملص منه غير ممكن . فاذا جاءوا مع كلابهم ، واقتفوا الأثر فاعتبر كل شيء قد انهار» .

صاح ايفان :

- هاي ! خذ الخبز !

توقف المجنون ، وقد أمسك بصخرة ،

والتفت ،وبعد قليل تردد صوته مع الريح :
– لا . ساذهب الى الغستابو .
وواصل نزوله .
– الى جهنم ! انتظر ! هاك ، خذ !
وقطع ايفان كسرة من الرغيف ، بالفعل ، ورفعها في يده ليراها المجنون ، وكانت جوليا الواقفة الى جنبه ترتجف من البرد ، وتنظر الى المعتقل بقلق . فابطأ هذا قليلا ، وقعد على بروز صخرة . فقد كان يخاف الاقتراب منهما .
– آه ، يا كلب ! – صاح ايفان من جديد في داهية ! – اذهب الى الغستابو ، اذهب !
جذبته جوليا من كمه :
– ايفان ، لا غستابو ! لا ، ايفان . أعطه قليل خبز ! لا غستابو ! ..
– كثير عليه الخبز ! اتركيه يذهب ...
– هو اسير رديء . غير جيد ، هو غستابو ...
لم يجب ايفان ، ووضع في زيقه ، نصف الرغيف والمسدس ، وذهب الى مكانه السابق في الاعلى . سارت جوليا الى جانبه صامتة . وكان ايفان يشعر بأن تصرفه هذا مع المجنون خطر ، ولكنه لا يستطيع التراجع الآن . فقد ظهر ان سورة الغضب اقوى من التعقل . كانت جوليا تتلفت من حين لآخر ، ولكن الظلماء غطت عليهما ، فلم يعودا يريان حولهما غير كتل

الصخر . وكان الضباب الرذاذي يندفع من الاسفل وعلى الجانبين ويتلولب . ولم يعرفا هل بقي الاسير في مكانه أم عاد من حيث أتى بالفعل . وقال ايفان حين لحظ الفزع في وجه الفتاة :

– لن يذهب . انه يكذب .

كان يهدئها ، ولكنه في ذات نفسه لم يكن يشعر بالثقة ، فالانسان لايعرف على اي حقير ستتوقف حياته ! فها هو انسان مريض ، ولكنه بقي حيا ، وشق طريقه في الجبال ، وتملص من طوق الحصار والمطاردة ، وافلت من تحت الرصاص . فهل يعقل أن يتيسر ذلك لانسان سوي ؟ بينما هذا حي ، وما يزال يتعرض لحياة الآخرين . ويبلغ الغيظ بايفان حدا يجعله يهم بان يكز على اسنانه ، وقد تذكر كم من الفتيان ، احسن الفتيان ، من شتى القوميات ، يذوون في المعسكرات . ولكن لاحاجة الى كز الاسنان ، فقد كان يجب التذرع بالصبر ، الصبر على كل شيء ، والا فالموت !

وكانا قد شرعا يلتفان حول بروز هائل ذي طبقات ، حين التفت ايفان ، ودس يده في زيقه ، كما أن جوليا نظرت الى الخلف ايضاً ، ولكنهما لم يريا المجنون في اي مكان . ومع ذلك فقد اخرج ايفان قطعة الخبز ، واستدار ، وبحث عن بقعة مناسبة ، ووضعها على الصخرة التي كانا

جالسين عليها قبل حين . وقال ، وكأنه يبرر عمله :

– لا بأس ! عسى أن يختنق بها !

هزت جوليا رأسها موافقة . والظاهر أنها كانت تعرف جيدا ما هي الخيانة .

– ١١ –

كانت الريح تسوق غمائم الضباب تترى وبلا انقطاع . تبللت السترة على ايفان ، وكانت الرجفه تهز كيانه من حين لآخر . وكان كثيرا ما يتلفت ، وقد أخذ يتشكك فلا يعرف هل سيعثر المجنون على قطعة الخبز ام لا ؟ بل ورغب في ان يعود ، ويأخذ قطعة الخبز ، ويأكلها . ولكي يتخلص من هذه الافكار الملحاحة واصل سيره بخطى اسرع .

وبعد قليل التفا حول نتوء جبار كان يبرز في السماء كذيل طائر حجري ، وصعدا إلى فوق . وفجأة تمزقت امامهما غمامة السحاب ، فرأيا قدامهما منحدرا صخريا أجرد ، ودربا يمتد عليه ، ويتلوى على الصخور متأنيا في هبوطه ، ويتيه خلال المنحدر . ولم يكن باديا جدا في كتلة الصخور هذه ، ومع ذلك فقد رأياه رأسا وفرحا .

كان ايفان أول من وطأه ، والتفت الى الوراء ،

فرأى الجلامد الجهماء تلوح بين غمائم الضباب ، كما من قبل ، والهاوية ، السحب اليمامية تطوف هنا وهناك . وفي الاعلى ، في السماء العالية المضببة كانت السلسلة الجبلية المرقطة المكللة بثلج كثيف تتوهج مضاءة بالشمس . والحقيقة أن ايفان لدى امعانه النظر اكثر اكتشف أن هناك سلسلتين جبليتين : بعيدة ، وهي جبارة عريضة مثل ظهر دب هائل جامد ، وقريبة مسننة يتناثر عليها ثلج قليل ، بدت أعلى الجبال جميعا ، تنطح كبد السماء بقمتها القصوى . فكانت هذه القمة تبدو من هذا الموضع اكبر القمم ، الا أن ايفان كان قد ادرك قانون الجبال المخادع ، حين تبدو اقرب القمم الجبلية أعلاها جميعا . والظاهر على كل حال أن تلك السلسلة البعيدة ، الشبيهة بالدب ، هي الرئيسية ، وكان يبدو أن الغاية التي يقصدانها - أي منطقة الانصار تريسته - هي وراء هذه السلسلة .

دفع ايفان رأسه الى الوراء ، وحدق لحظة الى الاعلى الى تلك العتبة في طريقهما الى المستقبل آملا بحرارة أن تنقطع المطاردة ، وأن يكونا قد تجاوزا أفظع ما يعترضهما ، وانهما لن يلتقيا بأناس في طريقهما ، وأن الطبيعة وحدها الآن هي التي تعترضهما ، ومصارعتها لاتحتاج الا الى قوة وطاقة على الاحتمال . وبعد ذلك نظر

ايفان الى رفيقة طريقه المسحورة ، كما يبدو ، بعظمة الجبال ، فرآها أيضا تتطلع الى الجبال المكللة بالثلج . وعندئذ ، ربما تفتح في نفسه لاول مرة فرح هادىء من كونه ليس وحيدا أمام غيب الطبيعة المتوعد ، وأن الى جانبه انسانا .
وعندما شعر بالراحة النفسية ، نطق بقلب منشرح الكلمة التي يحبها منذ الطفولة :

– هيا بنا !

ومن المستبعد أن تكون الفتاة عارفة بهذه الكلمة ، ولكن مشاعرهما الآن كانت من التجاوب بحيث أنها فهمته ، فسارعت تقول :

– هيا بنا !

فسارا في الدرب الذي كان يطوق المنحدر الصخري . وفي الاعلى ، من خلل الضباب ، التمعت الشمس بسطوع لايقهر ، وتحت أشعتها كانت مزق السحب تغير اشكالها ، وتتألق على المنحدرات الجبلية ببياض باهر للابصار ، وكانت الظلال السوداء المهلهلة تمرق سريعة على المنحدرات والمهاوي ، متناوبة مع رقع الضوء الساطعة . كانت الريح في هبوبها المستمر تطاير سترة ايفان ، وتنفخ سرواله . رفعت جوليا ياقة صدارها الجلدية ، وواصل الاثنان الصعود . صار شق الفلع الاسود ، والمنحدرات الصخرية شديدة الوضوح وقد اضاءتها الشمس ، وعلى

احداها أخذت العين ترى صخرة مضلعة ناتئة تلقي ظلا طويلا .
نظر ايفان الى الاسفل ، وتوقف ، كان الاسير المجنون يراوح في المكان الذي كانا واقفين فيه قبل حين .
- انظر اليه . لزق .
قالت جوليا :
- انسان مأساوي . بيكاتو - خساره !
- ولم الاسف ؟ انه وغد .
- يريد روسو يذهب . ولكن روسو بيوزه ، يخاف .
قال ايفان باقتضاب :
- صحيح ما يفعل .
وواصل السير مبعدا ذهنه عن المجنون ، ولو أنه من غير المريح جدا أن يخلف وراءه مثل هذا الأثر . ولكن ما العمل مع مريض لا يستطيع أن يطرده ، وما من مكان يهرب اليه منه . والظاهر أن عليه أن يتحمل هذا الوضع حتى الليل .
قالت الفتاة مشددة على المقطع الاول من اسمه :
- ايفان ، ليس غضبان على جوليا ؟
- ولم اغضب ؟
- يعني لاخوف ؟
- يمكنك ان لا تخافي .

قالت مبتسمة :
- لا اخاف ، ها ؟
- نعم .
الا أن البسمة سرعان ما غاضت عن وجهها المتعب الذي تبوأر ، حين انعكس عليه ، كما يبدو ، مجرى أفكارها المقبض .
- جوليا لايخاف روسو . جوليا يخاف ثلج .
تنهد ايفان ، وهو يسير في المقدمة ، وبالفعل كان الثلج وشحة الخبز أخذا يقلقانه . وفكر في أنه كان يجب أن يختطف من حارس الغابة شيئا آخر ، وحذاء من كل بد ، فان السير حافي القدمين على مثل هذا الثلج كان اكثر من مجرد حماقة . رغم أن الافكار الجيدة تظهر دائماً متأخرة جدا . في بادىء الأمر لم يفكر بالطبع بأنهما سيصلان الى القمم الثلجية ، حين كان الافلات من الملاحقة كان يعد سعادة . ومع ذلك فان النمساوي يستحق الشكر ، فلولاه لما كان لديهما خبز . سار ايفان في الدرب سريعا ومن الجانب كان ظلان طويلان يرتميان على المنحدر الى الاسفل تماما . ولم يرد ايفان أن يسري عن رفيقة سفره أو يسترضيها ، الا أنه قال :
- عندك سترة . فلماذا تخافين ؟ لا تتوقعي معطفا .
تنهدت الفتاة . وبعد أن صمتت قليلا قالت متذكرة في حزن :

— لجوليا في روما معاطف كثير . فير معاطف ، أربعة ، اسود ، أبيض...

ارهف ايفان سمعه ، وابطأ خطوه :

— ماذا اربعة معاطف ؟

دققت الفتاة بالروسية :

— أنا أربعة معاطف .

— يعني غنية ؟

— أوه ، لا غنية . فقيرة . معتقلة سياسية .

— ابوك ولست أنت . من ابوك ؟

— ابوى ؟

— نعم ، فاتر . من هو ؟

فهمت الفتاة فقالت بالايطالية :

— ها ، ايل بادري. ايل بادري كوميرسانتو. مدير شركة .

صفر ايفان بخفوت . اهوه ! وفكر : «لم يبق الا أن يكون هذا الاب فاشيا . عندئذ ستكون نزهتنا هذه في جبال الالب رائعة !» التفت اليها بحدة :

— هل ابوك فاشي ؟

— سي ، فاشي — أجابت جوليا ببساطة ، بعد أن نظرت في عينيه المقسيتين — كوماندير ميليتو .

بل هذا أروع ! اي شيء لا يحصل في هذا العالم ! مثلما كان يقول جوك : اذا القيت على كلب عصا وقعت على فاشي .

مال الى حافة الدرب ، وترك الفتاة تلحق به ، ولاول مرة نظر باهتمام مستثار الى قوامها الممشوق وان كان في ثياب قبيحة . ولكن العجيب أن تلك الثياب المخططة المستعارة لم تستطع ، مع كل ترهلها ، أن تشوه فتنتها الصبوية المتأصلة التي كانت تطل في كل شيء : في مرونة ودقة الحركات ، في ملاحة الوجه الرقيقة ، في طريقة الابتسام بانجذاب وغبطة . وكانت جوليا تنظر اليه بوداعة ووفاء ، وكانت يداها متشابكتين في كمي سترتها ، وكانت تضرب الدرب على عادتها بقبقابها الاهوج.

سأل ايفان بتوجس باطني :

- وأنت .. ربما فاشية أيضا ؟

والظاهر أن الفتاة شعرت في كلامه بريبة غير مخفية جيدا ، فوخزته بعينيها واعلنت بعتاب وشعور بالكرامة :

-جوليا فاشية ؟ جوليا شيوعية .

- انت ؟

- أنا !

- تكذبين - قال ايفان بعد توقف غير مصدق - اي شيوعية انت !

- شيوعية . سي . جوليا شيوعية .

- كنت منظمة ؟ كانت عندك بطاقة ؟

- لا ، لا بطاقة . شيوعية بالروح لا بالشكل .

– آه ، بالروح . لا اعتبار لذلك .
– ولماذا ؟
صمت . فماذا كان يمكن ان يجيب عن هذا السؤال؟ فاذا كان يعتبر شيوعيا كل من يسمى نفسه بذلك فما اكثر هؤلاء ! ثم أنها برجوازية ، ومن يقبلها بالحزب ؟ تهذر فقط . وسار ايفان اكثر سرعة وقد غرق في همه .
– عندنا لا يعتبر الانسان شيوعيا الا حين يسلم البطاقة الحزبية .
– آه ، في بلاد الروس ؟ في بلاد الروس شيء آخر . أنا يفهم . بلاد الروس سوفيتيك .
– بالطبع . عندنا ليس كما عندكم ، انتم البرجوازيين .
– سوفيتيك لطيف كثير . استقلال . حرية . أخوة . ها ؟
– اها .
– هذا لطيف ، لطيف كثير – قالت بقناعة – جوليا كثير كثير تحترم بلاد الروس . لا فاشية . لا غستابو . لطيف كثير. ايفان سعيد ببلاده ، ها ؟ – وركضت نحوه على الدرب ، وامسكت يده بكلتا يديها أعلى من المرفق – كيف كنت يعيش قبل الحرب ، يا ايفان ؟ اين قريتك ؟ اسمع ، عندك سينيورينا فتاة يحبك ؟ – سألته فجأة ، ونظرت في عينيه مختبرة . فصرف ايفان بصره بلا اكتراث ، ولكن

لم يسحب يده، فقد احس فجأة بلذعة غير معتادة في داخله من أقترابها الرفيق .
– وأي فتاة عندي ؟ لم يكن عندي مجال .
– لماذا ؟
– هكذا . الحياة لم تتح لي .
– يعني غير مرتاح في الحياة ؟ لماذا ؟
وفطن على الفور أنه لم يكن دقيقا في قوله . لم يكن يريد أن يتحدث عن حياته ، لا سيما وأن للفتاة تصورها الخاص عن بلاده ، كما يبدو .
– هكذا . كل شيء يحدث .
– لا ، غير صحيح ، غير صحيح – وحدجته في مكر بطرف عينيها السريعتين – يحب سينيورينا كثيرات .
أنى لي ذلك !
– ما اسم ولايتك ؟ في أي مكان كنت تعيش ؟ موسكو ؟ كييف ؟
– بيلوروسيا .
– بيلوروسيا ؟ ولاية هذه ؟
– جمهورية .
– جمهورية؟ هذا لطيف . ايطاليا ملكية . في جمهوريتك جبال كثير ؟
– لا ، عندنا غابات اكثر. ادغال ، انهار ، بحيرات . أجمل البحيرات – قال ايفان منطلقا مع ذكرياته – وقريتي تيريشكا تقع بالضبط بين بحيرتين ، وحين تمعنين فيها في مساء

هادىء تجدينها ساكنة ولا رقرقة . كالمرآة . والغابة تدلي قمم اشجارها في الاسفل. كاللوحة تماما . لا شيء غير طرطشة سمكة . وسمك الكراكي كبير ! واي شيء هذه الجبال بالمقارنة !

تحمس اكثر من اللازم رأسا، وقد شعر هو نفسه بذلك فصمت . ولكن افكاره التي اهاجتها الذكرى كانت تتشبث في وطنه البعيد بعناد ، والآن ، وهو في كتلة الصخور الوحشية هذه صار يشعر بحنين لا يحتمل ، ولم يشهد مثله منذ زمان ، وهو في الأسر . والظاهر أن الفتاة شعرت بذلك ، فطلبت حين صمت :

— تكلم اكثر ، تكلم عن بيلوروسك .

خلال ذلك كانت الشمس قد اختفت من جديد وراء السحب الرمادية ، واجتاح المنحدر الجبلي المنبسط ظل خاطف ، ومرت غمائم شعثاء داخنة رطبة مسرعة في عرض المنحدر .

وأخذ ايفان يتكلم في غير ما رغبة كبيرة في البداية ، متوقفا في احيان كثيرة ، كأنما يمر ثانية بنفس الانطباعات القديمة ، يتحدث عن شيء بعيد عزيز وضروري ، فحدثها عن ثمار البلوط المتناثرة في دغل اشجار البلوط ، وعن اعشاش القناديس في البحيرتين ، وعن نسغ البتولا البارد وعن احراش كاملة من شجيرات التشيريموخا الشذية في أيار . ولم يكن قد خاض بالحديث بهذا الشكل منذ زمن بعيد ، ولا

فتح نفسه كما فتحها الآن ، حتى أنه لم يكن يتعرف على نفسه . كما ان الفتاة بشغفها الصادق بكل ما هو حبيب الى النفس ، صارت اقرب اليه ، وكأن أحدهما كان يعرف الآخر منذ زمان ، ولم يلتقيا الا الآن ، بعد فراق طويل صعب .

وصمت اخيرا . حررت يده ببطء ، وامسكت اصابعه الخشنة بحرية اكثر ، وسألت بهدوء :

— ايفان ، امك لطيفة ؟

— امي ؟ لطيفة .

— وابوك ؟

وكانت تنظر الى المنحدر حالمة ، فلم تلحظ كيف سرت الرعشة في وجهه الذي تجهم في الحال .

— لا اتذكر .

— ولماذا ؟ — قالت مندهشة . بل وتوقفت قليلا . ولم يرد هو أن يتوقف ، فتوترت يداهما المتشابكتان .

— ابي مات ، وكنت صغيرا آنذاك .

— مات ؟ ولماذا مات ؟

— هكذا . انبترت حياته .

اطلقت الفتاة يده بلطف ، وسارت من جانب، متوقعة أن يقول شيئا مهما . يوضح ما لم تفهمه ، ولكنه لم يعد راغبا في أن يقول شيئا . وبعد بضع خطوات سألت :

– ايفان ، محنة ؟ ها ؟
– اية محنة ؟..
– أنت محظوظ ، يا ايفان – قالت جوليا بجدية دون أن تنتظر جواب ، بعد أن فهمت بطريقتها الخاصة على ما يبدو – بلادك واسعة ! ومثل هذه البلاد الواسعة تنتصر بالحرب . وهذه سعادة كبيرة ، كبيرة . توجد محنة ، ولكنها صغيرة . فلا حاجة ، يا ايفان ...

لم يرد بشيء ، سوى أنه زفر متحاشيا هذا الحديث . وبالفعل لماذا يجب أن تعرف المصاعب والتعقيدات التي صادفت حياته ؟

– ١٢ –

على هذا النحو كان يفكر ، وهو يتسلق الدرب الصاعد بحدة الى فوق، واثقا من أن موقفه صحيح . وبالفعل من هي ، هذه الحسناء التي قذفتها أحدى مفاجآت الحرب غير المعقولة في معسكر اعتقال فاشي ؟ من هي ليطرح عليها ما صعب عليه وانتزع منه في حينه جهودا نفسية كثيرة ؟ وهل تتقبل نفسها النزيهة ، وان كانت مرهفة ، واقع بلاده القاسي ، ذلك الواقع الذي يكاد يتعذر فهمه عليه هو نفسه ؟ قد تتعاطف لا غير . ولكن التعاطف لايجديه شيئا ، فقد تعود ، خلال الاعوام الخمسة والعشرين من حياته ، أن

يستغني عنه . ولهذا فالافضل أن يكون كل شيء بالنسبة لها جيدا ، بالشكل الذي تتصوره . وهكذا صمت .

سار ايفان سريعا ، وان كان غارقا في افكاره ، ولم يلحظ مرور الوقت . وصمتت جوليا ايضا ، وقد أدركت أنها مست وترا شديد الحساسية في نفسه، وتأخرت قليلا ، فظلا وقتا طويلا يرتقيان المنحدر صامتين . وخلال ذلك هبط مساء منئر خافق الريح على كتل الجبال الهائلة . وأخذت الجبال تعتم بسرعة ، وتتقلص الابعاد التي قلصتها السحب اصلا ، واختفى ألق الجبال الفضي - ابتلعه السديم الضبابي برمته. وعلى خلفية السماء المنورة قليلا لاح توأمان عملاقان لقمة قريبة مسودين ، ووراء القمة قمة أخرى اوطأ . وكان الدرب يمتد الى تقعر ، ربما هو مضيق بين جبلين .

كان المساء ، في العادة ، يرهق نفس ايفان. حالما يهبط الظلام يحس بالوحشة والانقطاع والهلع والضيق بشكل لا يحس به لا في النهار ولا في الليل ولا في الصباح . وكان يشعر بذلك بكل حدته في سنوات الحرب . والاكثر من ذلك في الأسر ، في بلاد غريبة ، في الاعتقال ، في الجوع والزمهرير . وكانت الوحشة والاحساس بانعدام الحماية ، والتبعية لقوة العدو الحاقدة

اللئيمة ترهقه في الاماسي بشكل خاص ، فيشتاق بشكل لايقاوم الى سلام ، الى سكينة ، الى نفس حدوب طيبة الى جانبه .

نادته جوليا من ورائه فجأة :

— ايفان ، ايفان !

شددت على «اي» كما هي دائما ، وكان ذلك غير مألوف ، بل ومفزعا في البداية ، وكأنما طلع الى جانبه شخص آخر غيرهما . وجفل ايفان ، وتوقف .

تهادت جوليا بين الصخور صامتة ، دون أن تنبس بكلمة أخرى ، وفهم ايفان الأمر دون كلمات . لقد وضح له رأسا مقدار تعبها ، كما أنه هو نفسه كان يشعر بأن من الضروري أن ينال ورفيقته شيئا من الراحة . ولكن الجو على هذا الارتفاع الشاهق كان باردا بشكل لايحتمل ، وكانت الريح العاتية تعربد، وتعبث في الثياب، وتصفر في الفجاج . تثلجت الايدي ، وتحجرت الاقدام كليا من شدة البرد . وكان البرد يشتد ، ومعه تشتد الريح في الليل . كانت الطبيعة بكل قوتها القاسية العمياء تهاجم هذين الهاربين . اسرع ايفان ، وهو يدرك جيدا أن المبيت في هذا المكان مستحيل ، وأن النجاة في الحركة وحدها ، وأنهما ان لم يجتازا المضيق في هذه الليلة فان الوقت سيكون متأخرا في الغد .

قالت جوليا ، وهي تقترب منه :

– ايفان ، أنا تعبان ، تعبان كثير .
رفع قدما ، وأنزل أخرى ، فقد كان كعباه يوجعانه ، وينملان ، ولكنه حاول الآن ألا يلتفت الى ذلك ، ونظر الى جوليا مهموما .
– لنحاول بشكل ما ... أنظري ، كيف تجهم الجو .
كانت سحابة داكنة كثيفة تتهادى من وراء القمم القريبة ، وفقدت السماء ألقها بالتدريج ، وكمدت ، وومضت نجمة ضئيلة وحيدة ، واختفت في الظلمة السوداء ، وغطى حجاب الغيوم الرمادي على كل شيء – على كتل الصخور ، والمنحدرات الجبلية ، والمضايق والوديان .
– أين هو المضيق ؟ لماذا لا يوجد ؟
– عن قريب .
أملها ايفان ، وهو نفسه لا يعرف كم من الوقت سيستغرقان في الوصول الى الفج .
وسارا من جديد في الدرب الباهت المعالم في التربة الصخرية . كان ايفان الآن يخاف أن يضيع رفيقة دربه ، فكان يسير بشيء من البطء، وهو ينصت الى الطرق المعتاد لقبقابها . وكان يتوقف في الاماكن الشديدة الارتفاع ينتظر الفتاة، ويقدم لها يده، ويجذبها الى فوق، وهو عند ذلك لايستطيع أن يضبط قلبه . وكانت الريح تعبث بالثياب بعنف ، وتوجه لطمات قوية للظهر تارة ، وللصدر أخرى ، حتى ليتعسر

التنفس ، وتصفر في الصخور ، وغالبا ما تغير اتجاهها ، بل ولم يكن مفهوما من اي جهة تهب .

وبعد قليل عسكر الظلام تماما ، واندمجت الصخور في كتلة واحدة صماء وانطبقت بالجبال السماء السوداء الخالية من كل رقعة نور . وصارت الظلمة كثيفة حتى أن ايفان كان يتعثر من حين لآخر مرتطما بالصخور ، وآذى قدمه غير مرة فاوجعته ، وعند ذاك استولى عليه القلق لاول مرة ، متحيرا اين الدرب ؟ انحنى ، وأمعن النظر وحاول تلمس الدرب بقدميه ، ولكن لم يجد حوله غير الصخور، فادرك أنهما اضلا الطريق.

رفع جذعه ، وتنحى عن الريح ، وأخذ ينتظر اقتراب الفتاة . وحين وصلت هذه اليه تقزل ، قال «انتظري هنا ! » وسار هو في ناحية. تقبلت جوليا ذلك بصمت ، وبلامبالاة تقريبا ، وقعدت على صخرة فورا ، وكورت نفسها اتقاء البرد . ابتعد ايفان كابتا القلق في نفسه ، متفحصا المواضع التي يطأها ، متلمسا الارض بقدميه من حين لآخر ، ولم يعثر على الدرب . أخذ شيء يتوامض في الهواء ، مد ايفان يده ، وعرف أن الثلج أخذ يتساقط . كانت ذراته الدقيقة المتباعدة تنطلق منحرفة من الظلام الريحي ، وتتجمع قليلا في الحفر والشقوق . وقف ايفان متمعنا في الظلمة ، ويفكر بجهد ماذا سيفعل بعد الآن ؟ تكاثف الثلج ، وتنورت الارض في الأسفل

بالتدريج ، وفجأة تقع عين ايفان على انحناءة الدرب الضائع غير بعيد عنه . نادى بصوت خافت :

— يا جوليا !

لم ترد الفتاة لسبب غير معروف . ارتعد ، وراح ينتظر والضيق يتنامى في صدره . وغضب: «يعني غفت ؟ اي رفيقة درب ارسل الرب لي ! مثلها لا تصلح الا للتمشي في البولفارات» . والريح ما تزال تضرب بضراوة في الصخور ، وذرات الثلج تتساقط كثيفة من السماء ، وتخشخش تحت القدمين . تخدرت رجلاه من البرد تماما . وقد خبأ يديه في كميه ، المسدس البارد في زيقه كان يلذع صدره .

— يا جوليا !

لم تجب ، فاتجه الى حيث تركها لاعنا في سره، واطئا الصخور المبللة الباردة على مضض. كانت جوليا تجلس على صخرة ، وقد تكورت ، وغطت ركبتيها بالسترة . لم تلب نداءه ، ولم تنهض لدى اقترابه ، فاستشعر ايفان سوءا ، وتوقف امامها . فقالت هي دون أن ترفع رأسها :

— خلاص ، ايفان !

صمت ايفان ثم قال :

— ما هذه خلاص ؟ هيا ، قومي !

— ما اقوم . لا اقوم .

– هل انت تمزحين ؟
صمت .
– هيا ، انهضي ! لم يبق الا القليل ونصل الى المضيق . وفي الاسفل ستنطلق الارجل من تلقاء نفسها .
صمت .
– أوه ، هل تسمعين ؟
– خلاص . لا . جوليا لا يسير . لا .
– لا يمكن البقاء هنا . سنتجمد . انظري الى الثلج .
الا أن كلماته لم تؤثر في الفتاة . كان ايفان يرى أنها قد انهكت ، فأخذ يدرك عبث محاولاته . ولكن كيف يجعلها تمشي ؟ فكر قليلا ، وأخرج من زيقه حافة رغيف الخبز المدعوكة ، وأدار ظهره للريح ، وقطع منها جزءا من اللب في احتراس .
– هاك خبزا .
– خوبز ؟
وانتفضت جوليا ، ورفعت رأسها على الفور . فدس الخبز في يدها ، فأكلته بسرعة .
– هات بعد .
– لا ، لا اعطيك اكثر .
فطلبت بولولة كالطفل .
– شويه ، شويه خوبز .
– ستحصلين عليه في المضيق .
فانطوت رأسا ، وانكمشت .

— مضيق لا !
— ما هذه «لا» اللعينة ؟! — صاح ايفان فجأة ، واقفا قبالتها . — هيا ، انهضي ! ما هذا الذي نويت عليه ؟ تتجمدين ؟ من تؤذين بذلك ؟ الالمان ؟ أم نويت أن تساعديهم ، أن تعودي الى المعسكر؟ أها، هم في انتظارك هناك منذ زمان.

صاح وهو يشهق بسبب الريح .

رفعت رأسها الى فوق دون أن تغير وضعها:
— معسكر لا .
— لا تذهبين الى المعسكر ؟ والى اين تولين وجهك اذن ؟

صمتت ، وطوت جذعها من جديد ، والتفت تكويرة صغيرة حية .

قال بلين :
— ستتجمدين ! يا عجيبة ! ستموتين قبل حلول الصباح .

كانت الريح تنثر ذرات الثلج ، وتديرها في الاعلى ، وبين الصخور ، ومع أن الثلج كان دقيقا ، الا أنه نور ما حولهما ، وصار الدرب واضحا ، وبرزت كسر الصخور . الا أن الجسد ، بدون حركة ، كان يفقد حرارته بسرعة ، ويرتعد من شدة البرد ويصبح عاجزا عن تحملها .

— طيب ، انهضي — وجذبها ايفان من صدارها ، وأوعز بلهجة عسكرية صارمة ! — نهوض !

تباطأت جوليا ، ثم نهضت ، وسارت خلفه بهدوء ، مستندة على الصخور خشية أن تقع . سار ايفان نحو الدرب ببطء مقطب الجبين . وكان قد أخذ يفكر في أنهما سيدبران أمرهما على نحوما ، وأن اسوأ الاشياء في مثل هذه الحال أن يختل ايقاع حركتهما ، ما ان يجلسان قليلا، حتى ذلك سيتطلب بذل جهود اكثر الى حد كبير لقيامهما من جديد . وفجأة ، وقرب الدرب تماما ساطت هبة ريح شديدة وجهيهما بنثار الثلج ولطمت صدريهما بشدة حتى تقطعت انفاسهما . وسقطت جوليا .

حاول ايفان أن يساعدها على النهوض ، فامسك يدها ، ولكنها لم تنهض ، وأخذت تسعل ، وظلت وقتا طويلا لا تسترد أنفاسها . وأخيرا جلست على صخرة وقالت بهدوء ، ولكن بثبات ، وكأنما عن شيء محسوم :

– جوليا خلاص . ألاس ! ايفان الى تريسته ، وجوليا لا .

– ابعدي هذا عن ذهنك .

وسار ايفان ناحية ، وجلس ايضا على نتوء صخرة . ووبخها :

– وتقولين انت شيوعية . أنت فزاعة !

احتدت جوليا وقالت :

– جوليا لا فزاعة . جوليا بارتيزانو .

لمس ايفان في صوتها نبرات كدر ،

فتشبث بها ، وقال لنفسه: «ربما هذا ما يفزعها».
– جبانة ، وأي شيء آخر ؟
– لا جبانة ، ولا فزاعة . ما عندي قوة .
قال بلهجة ألين :
– تحاملي على نفسك . هل تعرفين ماذا حصل ذات يوم في الجبهة ؟ في الجبهة الشرقية التي كنت تنوين الذهاب اليها . أحاطنا الالمان في بيت ريفي. ولا مخرج. ويضربون برشيشاتهم في النافذة ، ويصرخون : «روس ، استسلموا !» وآمر حضيرتنا بيترينكو ايضا يقول : «ألاس ، خلاص» ، وتناول مسدس ، وافرغ رصاصة في جبهته . واردنا نحن أن نفعل ذلك ايضا ، ولكن آمر السرية بيلوشييف يقول : «على مهلكم ، يا فتيان ! الابله ايضا يستطيع أن يطلق النار على نفسه . والوطن لم يعطنا السلاح لهذا الغرض . هيا ، اقتحام !» واندفعنا جميعا الى الباب ، وحالما اشتغلت الرشيشات تفرقنا ، بعضنا تحت السياج ، والبعض في الحديقة ، والآخرون وراء الركن . وماذا تتصورين ؟ افلتنا . صحيح أن خمسة منا قتلوا ، وبيلوشييف ايضا . ومع ذلك فقد نجا اربعة . ولو اطعنا بيترينكو لكنا عونا للالمان وهم في غني عن رمينا ، ونحن جاهزون للدفن .
لزمت جوليا الصمت .
– اذن ، لنذهب .

— لا .

— ولكن اية لعنة هذه ؟ — وأخذ ايفان يفقد صبره مرتجفا من البرد بكل كيانه — ستجمدين ، يا حمقاء . وما الجدوى من الهروب ، اذن ، والصعود الى هذا الارتفاع الشاهق ؟

بقيت جوليا على صمتها .

فقال ايفان ، وقد تذكر رفاقه الصرعى :

— ولأي غرض نسفوا انفسهم اذن ؟ على الاقل لو نجا واحد منهم . بينما أنت استرخيت .

ووثب شاعرا بالبرد الذي ينفذ اليه ويجمده ، وهو معرض الى الريح ، ومشى في الدرب . وخلفت قدماه الحافيتان آثارا سوداء على الثلج الرمادي . ولم يكن هناك قرس شديد من حسن الحظ ، والا لكان ذلك موتاً لهما محتوما . وبعد دقيقة توقف ايفان امام جوليا بتصميم .

— اذن ، لا تذهبين ؟

— لا ، ايفان .

— كما تشائين موتي — قال وفي ذات الوقت طالبها — اخلعي السترة .

تحركت حركة ضعيفة ، وخلعت السترة عنها ، ووضعتها على صخرة . ثم ألقت القبقاب عن قدميها ووضعته امامه . أزاح ايفان القبقاب بقدمه المتثلجة :

— ابقيه لك ... لتركضي الى المعسكر . .

وحشر كتفيه العريضتين في السترة ، ولف

طرفيها ، وصار اكثر دفئا في الحال . كان يشعر بأن شيئا قد تحطم بينهما الى الأبد ، وأن سلوكه هذا ازاء امرأة لايجوز ، ولكن الغيظ منها قد انفجر فيه الآن ، وبدا وكأنها قد خدعته بشيء ما ، ولهذا كان يجد نفسه منساقا الى معاقبتها . كان يشتم في سره ، ولكنه كان يشعر بأن انصرافه غير لائق ، والتخلي عنها فظاظة سخيفة، رغم أنه كان يحاول كبت كل ذلك الحنق . ومع ذلك ماكان من الممكن ألا يفهم أن جوليا في حالة صعبة جدا ، وأنها على حق ، بطريقتها الخاصة ، مثلما لم يكن هو منصفا في شيء ما لا يعرفه . وقد شعر ايفان بذلك ، فخفت غيظه لا اراديا .

خطا في الدرب خطوتين او نحوهما واستدار لها . فقالت الفتاة بهدوء وبما يشبه اللامبالاة التامة وهي منكمشة على صخرة :

— تشاو !

وذكرته هذه الكلمة رأسا بلقائهما يوم أمس . وبذلك البريق البهيج الذى رآه في الغابة وأدهشه في بريق عينيها المتألقتين ، وبجرأتها الطائشة وهي على مقربة من الالمان ، وجن جنون ايفان . لم يكن ما شعر به اشفاقا ، ولا عطفا ، بل احساسا غير مألوف اعتمل في صدره ، وان كان من المستبعد أن يلقى باللائمة على نفسه في شيء ما ، فهو لايظن أنه ملزم ازاءها بشيء . وقال لنفسه ، وهو يخنق هذه الازدواجية : «لا ،

سيكون ذلك احسن !» فمن الأسهل أن يسير وحده ، وهذا ماكان يعرفه منذ البداية . وبشكل عام ما كان ينبغي ان يربط نفسه بها . والآن صارت على كتفيه سترة ، ولديه شيء من الخبز ، سيكفي له وحده وقتا اطول ، وسيقتصد ، يأكل مائة غرام في اليوم . وفي حالة سيره لوحده سيتحمل كل شيء ، ويجتاز السلسلة الجبلية ، حتى ولو اضطر أن يغطس في الثلج الى الخصر . وسيصل الى تريسته ، الى الانصار ، فلماذا يربط نفسه بهذه الفتاة ؟ ومن هي له ؟

ركض على المرتفع بعجالة ، وكأنما يسرع للتخلص من التفكير فيها مهجورة في الأسفل ، ولكنه لم يستطع التغلب على البلبلة في مشاعره. فان شيئا مغلقا في نفسه كان يعمل بمنطق آخر ، وتباطأت قدماه تلقائيا ، والتفت مرة ثم أخرى ... كانت جوليا تلوح بقعة سوداء على المنحدر لا تكاد ترى . واذا بانكشافها المستسلم أمام الموت المحقق يحطم ما نوى عليه قبل حين قصير . واستدار ايفان ، دون ارادته ، وركض الى الاسفل ، بعد أن فشل في قهر شيء في نفسه . سمعت جوليا خطواته ، فجفلت ، ورفعت رأسها الى فوق بفزع :

— ايفان ؟

— أنا .

توفزت ، وقد حدسنت شيئا ما كما يبدو :

– لماذا ؟

– هاتي القبقاب !

اخرجت قدميها من القبقاب طائعة ، فاسرع وحشر قدميه المتثلجتين فيه ، والقبقاب البسيط ما يزال يحتفظ بدفئها . ثم ألقى عنه السترة :

– خذي ، ألبسيها .

والتفت بالسترة سريعا ، دون أن تنهض من مكانها . وكان يمسك بالكمين ليساعدها ، وحين لبستها ، أمسك الفتاة من كوعها .

– تعالي الى هنا .

تأبت بعناد ، وانتزعت كوعها ، وجمدت مبتعدة عن يديه . ونظرت الى وجهه متفحصة من تحت حاجبيها .

– تعالي الى هنا .

– لا .

– ياعيني على «لا» هذه ...

وبحركة خاطفة واحدة احتواها ، ووضعها على كتفه ، قاومت ورفرفت كالطائر ، ولبطت بين يديه ، ونطقت بشيء ، ولكنه لم يلتفت اليها، وحولها على ظهره، وطوق ركبتيها بيديه. فكفت عن اللبط فجأة وهدأت حتى لاتقع ، واسرعت فطوقت رقبته بذراعيها ، وشعر هو على خده بانفاسها الدافئة وقطرة حارة تحدرت وراء ياقته مدغدغة .

– وليكن ، وليكن ... بطريقة ما .

ارتخت فجأة ، وانزلقت على ظهره العريض ، وتقطعت انفاسها ، كما تقطعت انفاسه أيضا ، ولكن لا من الريح ، بل من شيء غير مألوف ، وآسر الحنان ، ورائع ، ومذهل في عجزه ، غمره نابعا من اغوار نفسه السحيقة . وافزعه الآن ماكان قد انتواه منذ حين من تركه اياها ، فسار نحو المضيق يطرق الارض بقبقابه الثقيل .

- ١٣ -

كان نثار الثلج يفترش الصخور الخشنة بطبقة كثيفة . وكان القبقاب الخشبي ينزلق عليها في الاماكن المنحدرة كثيرا ، وكان ايفان يحاول ، تفاديا لسقوط حمله ، أن يسير مائلا الى جنبه ، كما يفعل المتزحلق لدى صعوده مرتفعا . في بادىء الأمر لم يشعر بثقل جسمها الصغير ، فراح يصعد الى فوق بدأب ممسكا رجليها قليلا ، حانيا جذعه . ولكن سرعان ما أخذت اندفاعته تضعف ، وتولدت لديه رغبة في ان يتوقف ويرفع هامته ، ويلتقط أنفاسه لقلة الهواء في صدره . صحيح أنه تدفأ وصارت الريح الجبلية لا تثقل على جسده الحامي ، ودفىء داخله ايضا ، وتمزقت رئتاه من ضيق النفس .

يبدو أن المضيق صار قريبا ، والمرتفع تسطح يالتدريج ، ولم يعد الدرب يتلوى في

المرتقى الصخرى المغطى بالثلج . الى اليسار كان يرتفع شيء رمادي هو ، كما يبدو ، كتلة جبل آخر ، ومعنى ذلك أنهما بلغا الفج . كانت الريح كالسابق تعربد بضراوتها الطائشة ، وتعول حولهما وكأنما ببوق جبار غير مرئي ، وتولول ، بل وترن ، ورنينها قد يكون في الآذان . والظاهر أن الزمهرير أخذ يشتد ، وأكثر ما تأذت به الايدي والركب . ومن حسن الحظ لم يكن الجو ماطرا ، وذرات الثلج الكبيرة لم تكن تتعلق بالثياب ، وكانت الريح تسوط وجهيهما بوجع .

وكان ايفان بحاجة الى أن يستريح ، ولكنه كان يشعر بأنه اذا توقف وقعد ، فمن المؤكد أنه لن ينهض ثانية. فسار ساعة او اكثر، صاعدا الدرب الملتوى ببطء. وكانت جوليا تنضغط عليه صامتة ، وايفان يشعر بحركاتها بحساسية مرهفة ، ولكن الغريب أنه كان يحس احساسا مريحا رغم تعبه وجداله معها وانزعاجه منها قبل حين . ولو أن لديه ما يكفيه من القوة ، لحملها ، حمل هذه الملتصقة به بعيدا بعيدا .

وحين أخذت رجلاه تعوجان ، وخشي أن يقع طلعت من الظلام المتغضن كسرة صخرة سوداء هائلة . خرج ايفان عن الدرب ، واتجه اليها وقبقابه ينزلق على الصخور . بقيت جوليا صامتة تضغط خدها بقوة على رقبته . واستدار ايفان قرب الصخرة ، وامال الفتاة نحوها . انفكت

يداها تحت حنكه ، وتحرر كتفاه قليلا ، وعند ذلك فقط شعر كم هي ثقيلة .

– كيف انت ؟ تجمدت ؟

– لا ، لا .

– والقدم ؟

قالت بخفوت :

– نعم ، القادام .

كانت طوال الوقت تبدو هادئة بشكل غير اعتيادي ، وكأنها مذنبة ازاءه بشيء . وكان يشعر بذلك ،ويريد بطريقة لطيفة أن يهدئها بحنان . سوى أنه لم يكن يعرف كيف يفعل ذلك ، فقد كانت تعوزه الكلمات ، ولهذا بقي على تحفظه السابق ظاهريا .

تلمس قدميها بيديه دون أن يستدير . كانتا متخشبتين تماما ، وأبرد من اصابع يديه وعندما لمسها ارسلت صيحة خافتة ، وسحبت قدميها نحوها .

– آه ، لا يصح !

والظاهر أنها لم تفهمه ، اجلسها على الصخرة بشكل اروح.

وتناول من الارض حفنة من الثلج .

– تعالي ندلكهما .

– لا ، لا .

– تعال . ودعك من «لا» هذه .

قال في غيرما غيظ ، ولكن باصرار ، وتناول

احدى قدميها ، وحصرها بين ركبتيه ، كما يفعل الحدادون حين ينعلون حصانا ، وأخذ يدلكها بالثلج . ارتعدت جوليا ، وأخذت تتأوه ، ولكنه ضحك :

– كيف ، تتدغدغين ؟

– وجع ! وجع !

– تحملي . سأدلك بهدوء .

وباكثر ما يمكن من الاحتراس دلك باطن قدمها الصغيرة الشبيهة بقدم طفلة، وشرع يدلك الأخرى . في بادىء الأمر كانت الفتاة تتأوه ، ثم هدأت على أية حال . فسألها ، وهو يرفع جذعه:

– كيف الآن ، تدفأت ؟

– نعم ، نعم ، شكرا .

– هنيئا .

لفت قدميها بطرفي السترة ، وأسند هو ظهره برهة الى الصخرة الباردة ، وانتظمت انفاسه . ولكنه شعر بالبرد رأسا بعد توقفه عن الحركة . كانت الريح تنفذ خلال سترته الخفيفة التي لاتكاد تحتفظ بشيء من الدفء .

وسألها حين تذكر حديثهما السابق في الأسفل :

– هل تريدين خبزا ؟

– لا – ردت على الفور – جوليا لايريد الخبز ، ايفان يأكل الخبز .

– هكذا ؟ اذن ، لندخره .

قال ايفان ، وبلع كلاهما ريقه في وقت واحد تقريبا . وحين شعر بأنه يتجمد أجبر نفسه بقوة على النهوض ، وأدار لها ظهره :

— امسكي !

امسكت رقبته صامتة وباستعداد وانكمشت، فاحس ايفان بالدفء رأسا .

— ايفان — قالت بخفوت من خلال الريح ، وهي تنفث دفئا في اذنه — أنت عظيم .

وكانت قد عرفت قليلا كيف تستقر على ظهره ، وتجرأت شاعرة بتحنانه عليها ، وسألت:

— الروس كلهم ، كلهم عظيم ! ها ؟

— نعم ، نعم — وافقها لانه لم يتعود التحدث عن نفسه ، كما أن الدرب يوشك أن يؤدي بهما الى مكان منسرح قليلا وكان يريد أن يتجاوز المرتفع باسرع ما يمكن .

— ايفان كان يريد جوليا تخاف ، ها ؟ صحيح ؟ مايريد يتركها ؟

كشر في الظلام مرتبكا ، وقال بثقة لم يرد هو نفسه ان يصدق بها :

— بالطبع ...

— أنا ثقيل كثير ، ها ؟

— لا ، ابداً . مثل الريشة .

— ها ، ريشة ... يعني صغير صغير ؟

— نعم .

سار في الدرب الذي كان واضحا في الثلج

بشكل جيد . كانت انفاس الفتاة الدافئة تدغدغ رقبته من الخلف بشكل مسل . مسدت اصابعها اللدنة الرقيقة صدره ، فجفل قليلا من المداعبة المفاجئة .

- هل ستعلمني الكلام بلغتك ؟
- البيلوروسية ؟
- نعم .

ضحك ، فقد بدا مثل هذا الطلب غريبا في هذه اللحظة .

- حتما . سنصل الى تريسته ونبدأ .

وأثارت هذه الفكرة في نفسه فجأة موجة من المشاعر البهيجة على نحو غير اعتيادي. أيعقل أن سيسعدهم الحظ حقا في الوصول الى تريسته ، والعثور على الانصار ؟ لو قدر أن يحدث ذلك لن ينفصلا مهما يكن من شيء ولانضما الى فصيلة واحدة . فكم من المهم أن يكون الى جانبك شخص حميم اليك وانت في أرض غريبة ! واحس ايفان بتعلقها الحنون به ، ولم يعد وجودها هنا يبدو له غير مرغوب فيه او مرهقا . الآن فقط ، وبعد أن قضى معها يومين شعر بفداحة الوحدة التي عاش فيها سنوات الحرب كلها باستثناء الرفقة مع الجنود . كان دفء الفتاة وحنانها يذكرانه بشيء له علاقة بالاخت أو الام ، حين تنتفي الحاجة الى كلمات خاصة ، فان مجرد الاحساس بقربها الصامت كان يفعمه بفرح هادىء .

دخلا الفج ، حيث كانت صخور الاعالى تتدلى على جانبيه . كان الدرب يتلولب بينها مسافة أخرى ، ثم يصعد بوضوح الى الاعلى . وفي الظلام الليلي كان يتساقط ثلج خفيف .

جفلت جوليا على ظهره :

– أهذا المضيق ؟

– نعم .

– آه ، مادونا !

– وكنت تقولين : خلاص ! ها انت ترين أننا وصلنا .

وتوقف ، وأنحنى يمسكها على نحو أروح ، ولكنها سحبت نفسها من ظهره .

– جوليا ستمشي لوحدها . دانكه ، غراتسيا ، شكرا !

– ولماذا نزلت ؟ اصعدي !

– لا يصعد . ايفان تعبان .

– لا بأس . في الانحدار أسهل .

لم يطلق رجليها ، فاضطرت الى الامساك برقبته تحاشيا من السقوط . ألقت خدها على كتفه البارد ، وداعبت باصابعها حنكه الخشن الذي لم يحلق منذ وقت .

– أوه ريشنو ؟ قونفذ ! شوك .

– سأحلق في تريسته .

– تريسته !.. تريسته ! .. – رددت

حالمة – تريسته البارتيزانية .جوليا يطلق النار . الفاشي خنزير .

كان يستمع اليها بابتسامة محترزة ، ويجاهد لتلمس الطريق في الظلام . ومع ذلك فقد كان النزول اسهل قليلا من الصعود . وكان القبقاب غالبا ما ينزلق . وقد بدأت ركبتاه تئنان من الجهد المستمر ، ولو أن تنفسه صار أروح . وكان يجاهد بكل قوته للثبات على قدميه، والنزول من المضيق في خطو سريع في بعض الاماكن ، وركضا في اماكن أخرى متعرضا للوقوع طوال الوقت . وكانت جوليا بين الحين والآخر تصرخ من على ظهره مذعورة :

– أوي ، ايفان !

– لا شيء . امسكي !

صارت الريح أهدأ في الفج ، وبسبب ذلك بدا الجو أدفأ . وكان من المستحيل ان يريا الى اين يؤدي بهما الدرب ، وماذا في انتظارهما في الامام .

وبعد وقت قصير سكنت الريح تقريبا ، وكف رذاذ الثلج ، وكانت الصخور المفروشة بالثلج تتكتل في المدى الذي يبلغه البصر . كان الدرب ينحرف الى اليسار تارة ، والى اليمين أخرى ، ويلتوي باعجوبة على الصخور التي صارت اكثر انبساطا مما هي في الجانب الآخر من المضيق . واعتدل مشي ايفان اكثر ، وقد شعر

بالتعب ، ولم يلتفت الى الوراء ، مركزا انتباهه لكيلا يضيع دربه . وصمتت جوليا لسبب ما . وذات مرة حاول الكلام معها ، الا انها لم تجب .

غلبها النعاس على ظهره دون ان تدري ، فنامت وادعة ، واستقرت ذراعاها على كتفيه ناعمتين رقيقتين . والظاهر أن السترة قد انحل طرفاها ، فشعر ايفان من الخلف بدفء صدرها الناعم على منكبيه الحارين . ومن نكد الطالع أن حصاة وقعت في قبقابه الايمن ، انحنى مرتين وأدار قدمه ، ولكنه لم يستطع نفضها . ولم يكن السير مريحا الى درجة كبيرة . الا أن ايفان لم يوقظ جوليا ، وسار أبطأ خطوا . ومشى على هذا النحو الى الاسفل فترة طويلة أخرى . يبدو أن النعاس طاف في اجفانه هو الآخر اثناء سيره، واذا به لم يعد يعي أين هو ، ومن يحمل على ظهره ، ولكن ذلك لم يستغرق غير ثوان قصيرة، وافاق على نفسه فورا ، وشعر بانفاس الفتاة وهدأ . والصخور الكالحة ما تزال تكتظ حوله ، وعلى منحدراتها ثلج في ذوبان . تعالت رطوبة من الاسفل ، وأحيانا كانت رائحة ابر الصنوبر ترد من هناك ، ويضج مسقط ماء من ناحية بعيدة ، والظاهر أن المضيق كان هناك .

وقبيل الصباح نزلا الى منطقة المروج .

اختفت رقع الثلج حولهما رأسا ، وكأنها ذابت، وهدأت الريح ، ودفىء الجو ، الا أن الهواء كان

مضمخا بالرطوبة ، وغمائم الضباب الرطبة تنزلق على الصخور متصاعدة من الوادي . والى الاسفل من ذلك داعب انفيهما شميم الاعشاب والزهور الراكد ، ورائحة صنوبر كثيفة رطبة ، وادرك ايفان أنهما تخطيا أصعب مراحل مسيرتهما . ضاع الدرب في مكان ما ، ولكن العثور عليه لم يكن صعبا . سار ايفان مسافة قصيرة ، وشعر تحت قدميه بعشب كثيف ناعم ، وفكر في أنه سيسقط بين لحظة وأخرى . كانت انصال العشب التي تبلغ حد الركبة تسوط ساقيه بتويجات زهور متماسكة . وكانت جوليا تنام بهدوء . وعند ذاك ركع على ركبتيه بهدوء حتى لا يوقظها ، وهبط معها على جنبه بحذر .

ولم تستيقظ .

— ١٤ —

وخلافا للعادة لم يحلم ايفان هذه المرة بحلمه المقلق الدائمي . نام بضع ساعات نوما متواصلا عميقا ، ثم طغى على وعيه خليط شفاف من الهلوسة والواقعية .

كان شبابه يوشك أن ينقضي وهو في سن الخامسة والعشرين والكثير من المسرات الانسانية البسيطة لاتعاد ولاتعاش اذا لم يكتب لك أن تعيشها في الاعوام التي انقضت ، ولعل

الناس ، في هذا المعنى ، مكرمون أكثر مما أعد القدر لايفان تيريشكا . صحيح أنه نادرا ماكان يفكر في ذلك ، ولم يكن له الوقت للركض وراء السعادة ، عندما كان في موطنه كان مضطرا الى الاهتمام بتمشية المعيشة ، والوقوف على القدمين . ومن المفهوم اي اهتمامات كبيرة شغلته بعد ذلك ، اثناء الحرب . ولم يكن له الوقت للحب . ولم يعرف المرأة ، وكما يحصل غالبا في عهد الشباب كان ينظر بتشكك الى العلاقات الاعتيادية المتبادلة بين الفتيان والفتيات .

قبل عامين جرح ايفان في الجبهة الشمالية الشرقية في وقت واحد مع آمر سريته الملازم أول غليبوف ، حيث كان ايفان مراسلا له .

وقد جرح الاثنان في غابة ، حين كان آمر السرية ذاهبا الى الاجتماع مع آمر الفوج . وقد شد تيريشكا على كتفه المشقوقة بشظية ، واستطاع بشكل من الاشكال سحب الآمر من تحت النار ، وضمده ، وجره على الثلج الى الطريق ، حيث التقطتهما العربات . وكان ايفان بجرحه الخفيف يجد في نفسه القدرة على التحمل ، بينما كانت حالة الآمر اسوأ . فقد فقد الملازم أول دما كثيرا ، ولم يكن يتكلم تقريبا ، سوى أنه طلب أن ينقل الى المستشفى رأسا ، وتخطي قسم الاسعاف للكتيبة . وكان ايفان يتفهم قلق ضابطه . فقد كان الآمر لا يريد ازعاج انيوتا ،

وهي فتاة نحيلة وسيعة العينين عينت قبل وقت قصير مشرفة على اسعاف السرية ، وصارت ممرضة في كتيبة الاسعاف ، وكان جميع من في السرية يعرف أن بين الاثنين غراما حقيقيا وليس مجرد لعب . ولهذا السبب بالذات سعى آمر السرية فنقلها الى كتيبة الاسعاف . حيث كل شيء اهدأ مما في الخط الامامي . والجنود من حملة الرشيشات أحبوا الفتاة ايضا ، بطريقتهم الخاصة ، وكانوا باحترامهم لآمر السرية يحترمون حبه ايضا . كما كان لايفان المراسل علاقته الخاصة بها ، ولربما لكونه أقرب الآخرين الى غليبوف تعلق بانيوتا أيضا كأخته الصغيرة ، وحتى اكثر من ذلك ، ربما .

ولكن الذي حصل انهم لم يستطيعوا تخطي كتيبة الاسعاف . فكيف يمكن أن ينقل المصاب الى مستشفى المؤخرة ، وايفان خائف من أن الوقت لا يكفيهم حتى لنقله الى كتيبة الاسعاف . انطلقت الخيول سرعة في طريق الزلاجات المدكوك ، وايفان يصرخ طوال الوقت على السائق – وهو جندي كهل ثقيل الحركة يرتدي على سترته المبطنة معطفين اضافيين – بأن يسرع بالخيول . أخذ غليبوف يغيب عن الوعي ، ويهذي ، ويشتم . وعندما وصلوا الى السرادق الكبير المصنوع من المشمع والتابع لكتيبة

الاسعاف لم يعد غليبوف يعرف مراسله ، كما لم يعرف انيوتا التي سقطت على الزلاجة صارخة .
وعلق في ذاكرة ايفان الى الابد ذلك المساء، والسماء الصقيعية المنجمة ، واشجار الشوح الكئيبة ، ورائحة الدخان المعتادة ، واللغط الخافت للناس في الخيمة ، واكثر من هذا وذاك تفجع انيوتا . لم يسمحوا لها بدخول غرفة العمليات ، رغم أنها اندفعت نحوها ، وراحت تبكي . وجلس ايفان أيضا عند المدخل ناسيا ألمه ، ملتقطا من الممرضات الخارجات كل خبر صغير عن حالة الجريح . ولم تكن الاخبار سارة فقد طالت العملية على الملازم أول وتعسرت ، ونقلوا الدم الى جسم المصاب ، وذهبوا لجلب المصل الفيزيولوجي ، وأنتظر ايفان ، ولم يستطع تهدئة انيوتا - وكان نفسه في حالة سيئة ، وظل يدخن حتى فرغ كيس تبغه .
ومات غليبوف اثناء العملية . ولم يتسن للاطباء الوقت حتى لدرز جرحه .
وبدا المصاب المفاجىء وكأنما أحرق شيئا في نفس ايفان ، واحاله الى رماد . لم يكن يتصور أنه سيشقى بموت آمره هذا الشقاء . والظاهر أن معاناته قد اشتدت بمرأى نكبة غيره.
وتغيبت انيوتا عن الخفارة عدة أيام ، ولم يحاسبها أحد على ذلك . بل على العكس كان الجرحى وهم راقدون على التخوت النقالة في

الخيمة الهائلة كالسقيفة يقفون موقفا محترما من فجيعتها . وايفان وحده بقي صامتا يفكر .. وفي ذلك الحين على ما يبدو تولدت لديه نحوها عاطفة معينة ولم تكن هذه العاطفة الجديدة حبا ، بل ان شعوره نحو الفتاة كان من قبيل الاحترام العميق لا غير .

وخلال الامسيات الشتائية الطويلة في كتيبة الاسعاف ربما نسي كليا المزاح والابتسام ، وظل ينفث دخان التبغ البيتي بلا انقطاع محدقا في التوامض المشع في موقد مصنوع من برميل حديدي حماه الممرض أحمدشين الى حد الاحمرار. ومنذ ذلك المساء المشهود لم يجر أي حديث بينهما تقريبا ، على الاخص وأن أحدهما كان يفهم حالة الآخر النفسية بشكل جيد . وحين استأنفت انيوتا الخفارة بعد انقطاع طويل كانت قد فقدت حيويتها المستديمة ، وصارت مشغولة البال وصارمة بشكل لايتناسب مع عمرها . وآصرت المصيبة المشتركة بينهما وكان ايفان يساعدها في هذا وذاك في السرادق، واحيانا دون أن يفوه بكلمة عن معاناتهما ، فكانت ممتنة له .

كانت انيوتا تجلس على سريره عادة في ساعة متأخرة من المساء ، بعد أن تنجز اعمالها ، وتحدق ايضا في النار ، وفي هذا الوقت كان أحدهم يحكي في ركن مظلم حادثة صعبة حدثت

في الجبهة أو حادثا اكثر بهجة وقع في الماضي ما قبل الحرب . وكان ذلك يبعث الراحة في النفس.

ولكن الوقت كان يمضي ، والجرحى في كتيبة الاسعاف يتغيرون ، بعضهم يجلون الى مكان أبعد في المؤخرة ، والبعض الآخرون يعادون الى الخط الامامي ، بعد معالجة أولية . واذا بتغير يبدو صغيرا في الوهلة الاولى حطم السكينة الوادعة في هذه الخيمة رأسا .

ذات مرة بعد الغداء ، حين أخذ ايفان يجمع القدور المستخدمة ليحملها الى المطبخ صدرت عند مدخل السرادق أصوات وطبطبة اقدام ، ودخل ممرضان يحملان جريحا على نقالة مغطى بفروة ، وكان هذا الجريح آمر وحدة شابا برتبة رائد (تبين فيما بعد أنه من وحدة الدبابات التي كانت تساند وحدتهم) . وأخذوا يهيئون للجريح مكانه في زاوية ، وقوميسار كتيبة الاسعاف يشرف بنفسه على كل شيء . ووجد ايفان نفسه، وهو يحمل الاواني الى المطبخ ، يستغرب من هذا الاهتمام بالجريح . وعندما عاد كان الرائد قد جلس على النقالة ، وتدفأ فالقى عنه المعطف الفرائي غير المردن ولمعت على صدره العريض ستة اوسمة . وكان الجرحى في السرادق سكنوا، وقد حولوا رؤوسهم الى ناحيته بفضول .

وظهر أن الرائد رجل حرك محب للعشرة ، وكان جرحه خفيفا في كلتا قدميه . ولم يكن ينظر

الى السقف بلاغاية كما كان الآخرون يفعلون في الايام الاولى من جرحهم ، بل تعارف بسرعة مع المقاتلين الجرحى ورجال الاسعاف ، وصارت له على الفور علاقات ودية مع الممرضات متعاملا مع الجميع ببساطة ومرح . وبعد يوم أو يومين صار يتردد عليه اصدقاؤه من زملائه في الخدمة.

واحيانا كان الرؤساء يزورونه . الا أن هذا الأمر مع كل حب عشرته المحمود سرعان ما أخذ يطالب بوضع حاجز في زاويته . ولم يندهش المقاتلون الجرحى من ذلك، فهو على كل حال برتبة رائد ، فتفهموا رغبته في الانفصال عنهم ، رغم أن ذلك لم يكن متبعا في السرادق بالنسبة لذوي الجراح الخفيفة . ولبي طلب الرائد ، وظهر في الزاوية ركن محجوز بالاغطية ، ومنذ ذلك الحين كانت أمتع الاشياء تجري فيما وراء الحاجز.

وأخذ ايفان يتجهم ، ويكبت في نفسه احيانا غيظا يبدو بلا سبب ، وهو يرى انيوتا يأخذها المرح وتنشط ، وتدخل راكضة فجأة الى ذلك الركن في شأن من الشؤون . وفطن الرائد ايضا الى هذه الممرضة الدافقة الحيوية ، فأخذ يوليها من بين الاخريات مختلف اشكال العناية . وذات مساء تأخرت عنده اكثر من المعتاد ، ظل الرائد يحدثها طوال الوقت عن الموسيقى وعن أحدى الاوبرات . وراحت انيوتا تستمع ، وتستفهم ،

وتحيط حديثه عموما باهتمام شديد . بل وتأخرت في تسليم الخفارة ، وتلقت توبيخا على ذلك .

ومنذ ذلك المساء صارت اكثر مرحا ، تنطلق بخفة خلية البال في الممر بين النقالات ، وتمزح مع المحاربين ، بل وغنت ذات مرة اغنية المنديل الازرق . وهكذا ما كانت ستفطن ، ربما، الى مبلغ عقوقها لو لم تنظر الى ايفان في تلك اللحظة ويبدو أن النظرة وقعت في الصميم من قلبها ، فاضطربت ، واوقعت من يدها شدة الضماد ، وخرجت راكضة من السرادق دون أن ترفعها . وطبيعي أنه لم يقل لها شيئا ، سوى أنه راح يفكر : غير معقول ، ولا يمكن أن تكون كذلك ، انه مخطىء ، متوهم لا غير ! وأخذ حب الآخر يقرض في نفسه باستمرار كجرح لايندمل. فكان ايفان ينفيه قدر ما استطاع ، ويتعذب بسببه ، اكثر مما لو يتعذب ، ربما ، من حبه الذي لم يتكون بعد .

ولكنه كان يطمئن نفسه بانه قد يكون على خطأ . وسرعان ما لاحظ أن انيوتا تتحاشاه ، ولا تريد حتى أن تلتقي نظراتهما ، وأنها مشدودة دائما الى ماوراء الحاجز .

وصار ايفان اكثر انطواء ، ونحف ، وقل خروجه لجلب الحطب ، وأخذ ناقهون آخرون يساعدون احمدشين .

وعلى هذا المنوال انقضت بضعة ايام .

وذات مرة كانت انيوتا تحقن الرائد بأبرة .
وكان ذلك في باكر الصباح ، حيث النور ضعيف، و«الكاتيوشا» تومض في الجانب الآخر من الستائر ، وكان ايفان يرهف سمعه ليلتقط كل حركة وراء الحاجز ، وهو يكنس الممر الترابي في السرادق بمكنسة من اغصان الشوح، واذا به يرى ظلين على الستائر. حاولت انيوتا ان تنتزع نفسها من ذراعي رجل قويتين ، ولكنها انكتمت ، ولم تطلق صيحة . أتم ايفان كنس الارضية على نحو ما ، ثم فقد كل اهتمام بما حوله ، واستلقى على الحشية الاخيرة في الزاوية المظلمة ، وبقي على هذا الوضع وقتا طويلا مستغرقا في نفسه . وحين تلاشى اللغط الصباحي كله ، جمع ثيابه ، وربط كيس متاعه ، وسافر دون أن يودع أحدا.

وفي الظهر كان قد وصل الى سريته .

وفي اليوم التالي ، حين ذهب رئيس العرفاء الى كتيبة الاسعاف لجلب بطاقة الاعاشة ، وعاد يحدث عن مغادرة تيريشكا بتلك الطريقة غير المفهومة . وتفكه المقاتلون قليلا ، وهدأوا ، وظل ايفان وقتا طويلا بعد ذلك لائذا بالصمت في المخبأ المظلم . وهل كان في امكان أحد أن يحدس ما كان يجري في دخيلته ؟ واندمل الجرح على كتفه بالتدريج . بينما بقيت اللوعة من الحب الآخر المدان ، وفكر ايفان بأن الفتاة ليست من نصيبه .

كان احساسه الأول بالعالم الواقعي دافئا . بل واكثر من ذلك ، كان ساخنا ، والاصح خانقا . تصور نفسه راقدا على نقالة في كتيبة الاسعاف ، قرب الموقد البرميل الذي احماه احمدشين بشكل لا يرحم . ولم تكن القدمان وحدهما حاميتين ، بل والرأس والكتفان اكثر حماوة منهما . وشعر ايفان بلزاجة العرق على جسده . فاحس بعطش شديد ، برغبة في أن ينقلب ، ويحتمي بشيء من هذه الحرارة التي لا تطاق . ولكن تعبا منوما طغى عليه بشدة ، لم يستطع حتى أن يفتح عينيه .

وبهذا الشكل كان يلوب في لجة النعاس ، وأخذ النوم يهجره بالتدريج . تمطى ايفان ، وألقى ذراعه ، وأحس فجأة بطراوة العشب المنداة . فتح عينيه بصعوبة ، وكان أول ماوقع عليه بصره زهرة ساطعة الحمرة قرب وجهه تفرش للشمس وريقاتها الاربع العريضة الصقيلة في تهيب وسماحة ، وعلى طرف احدى هذه الوريقات تتلألأ قطرة شفافة كدمعة على وشك أن تسقط . وكان النسيم الصباحي يداعب ساقها النحيلة الطويلة . وبعيدا ، في العشب الزاهي الكثيف يطن يعسوب في نعاس . الا أن الطنين العالي النبرة سرعان ما انقطع ، وأدرك ايفان عندها أن

السكون حوله تام شامل . وكان قد نسي الفته للسكون ، فارتعب ، غير مدرك أين هو ، فاقتلع جسمه من الأرض ، وفتح على سعة عينيه المحمرتين بعد النوم ، وبهره الجمال المذهل شبه الاسطوري المحيط به .

كان المنحدر المرجي الهائل يتألق في لألأ من الشمس خارق فيضاً عريضاً وادعاً من خشخاش الالب .

كانت الزهور الكبيرة الشبيهة بالدرقطيون والعذراء التي لم تطأها قدم انسان ، وقد حبتها الطبية الأم بسخائها العظيم ، تتماوج بملايين التويجات الحمراء الصغيرة في النسيم الرخي ، وتنسرح الى الاسفل منداحة حتى طرف هذه المرجة الجبليه . القى ايفان بصره ابعد من ذلك، الى الامام ، حيث كان عليه أن يسير ، وغاض فرحه اللاارادي . كان جبل الدب الضخم مايزال يتعالى بعيدا وراء الوادي في زرقة من المساحات الثلجية . وهو اعلى بكثير من السلسلة التي اجتازها ، والتي تطل من الخلف بقمتيها التوأمين، وكان ظله الهائل يغطي نصف الوادي العريض كدخان ليلقي شفاف . ان هذا المارد المكشوف الآن تماما بقي ، كما كان بالامس ، بعيدا متلألئا منيعا .

وهنا جفل ايفان ، فالآن فقط بلغ وعيه المغزى المفزع لهذا السكون . اين جوليا ؟

وتلفت من جديد ، لا أحد حوله ، وعلى التويجات المسحوقة على مقربة كانت السترة ملقاة في عزلة . ولكن فزعه الأول تلاشى حالا . فقد رأى المسدس والثلث المفتت من رغيف الخبز مرميين على العشب ، وقد غطيا بردن السترة اتقاء للشمس كما يبدو . وعندها وثب على قدميه ، وقلب بصره المحموم في المنحدر . اين هي ؟ معقول ؟.. وراود نفسه ظن منحوس ، ولكن لم يكن في مقدره أن يصدق به . وهو نفسه لا يعرف لماذا لم يصدق به ، مجرد أنه لم يرد ذلك . كان يتعطش الى رؤيتها ، الى سماعها ، الى أن يشعر بها الى جانبه . وسحقته الوحدة فجأة اكثر مما يسحقه أسوأ الامراض .

التقط المسدس والخبز ، ودس السترة تحت ابطه ، وأندفع الى الاسفل على العشب . كانت التويجات الرطبة تضرب قدميه المتورمتين المحكوكتين . وتذكر القبقاب والتفت ، لكن لم يجده . فعاد يمشي مسرعا في المرج وزهور الخشخاش الكثيفة تهسهس تحت قدميه ، وابتعد مسافة لابأس بها وتوقف . في الخلف كانت آثار قدميه تلوح على الزهور المنداة . وحوله بحر أحمر لم تطأه قدم .

واسلمه ذلك الى تخمين . وضع السترة تحت ابطه ، وعاد مسرعا .

وصدق تخمينه ، فقد رأى أثار اقدام أخرى

على العشب المندى تتجه ناحية ، حيث يبدأ فج . فركض ايفان نحوه مسرعا . تبلل قدماه وسرواله بالندى بسرعة . واسكر عبير الزهور القوي رأسه ، واحس بجوع شديد ، وغامت عيناه من الارتخاء والضعف . وتلك هي احاسيس قديمة مألوفة له قاومها جسد ايفان القوي اصلا والمتمرس ، وشعر بأن قواه لم تنضب بعد .

كبت ايفان هلعه النفسي والتف حول نبات الردوندرون الشائك المغطى بزهور كبيرة بحجم قبضة اليد ، فاذا به يسمع ضجيج شلال من ناحية الفج الصغير . وسرعان ما اشتد الضجيج، ولاح مسقط ماء متلألىء ينزل من ميزاب حجري أسود لامع من البلل .وفي الاغبشاش الضبابي حوله كان يتناثر رذاذ دقيق ، وعلى مبعدة منه في خلفية الصخور القاتمة طلعت في الهواء رقعة قزحية مختلفة الالوان . صعد ايفان الى فوق غير عابىء بجمال الجبار المفاجىء هذا ، ولكنه توقف فجأة ، وانحط على الارض بهدوء . فقد رأى جوليا واقفة على صخرة تغتسل ، وهي تدير ظهرها اليه ، تحت مسقط الماء المنثال رقراقا على بعد خمسين خطوة .

وقد عرفها رأسا ، رغم أنها وقد تعرت ، فقدت علامات المعتقل اللعينة وبدت في وحدتها مع الطبيعة مختلفة تماما في كمالها الانثوي الاعجوبي المفعم بالغموض والعذرية . لم تكن

الفتاة تراه ، فكانت تنكمش بحذر ، وتدخل جسدها النحيل الخفيف بسرعة تحت شبكة الماء الكثيفة ، متهيئة الى أن تنتفض ، عند أول صوت تسمعه ، وتختفي . وكان اللمعان القزحي المتعدد الالوان يتماوج على كتفيها اللامعتين نثار الماء .

هبط ايفان بجسمه على العشب ببطء غير قادر على كبت شعور الخجل والفرح ، واستلقى، وانبطح على ظهره ، ورأى فوقه سماء صافية تماما خالية من اية غيمة ، وأدارت رأسه روائح الارض الندية كجعة بيتية مخمرة . تسطح ايفان على العشب البارد ، وضحك بهدوء من فرط السعادة .

كان الفزع يرمض في بواطن روحه ولا يخفت فقد كان أمامه جبل صعب المرتقى ، ومن الخلف ... واضح ماكان يمكن توقعه من الخلف . ولكن ايفان الآن ، في هذه البقعة المغلقة ، قرب الفتاة التي كانت ضائعة فوجدها ، والتي صارت شخصا عزيزا عليه ، كان يشعر بارتياح طفولي ، وانشراح في صدره ، لم يشعر به ، ربما ، طوال سنوات الأسر . فظل راقدا على العشب ، متشربا بظمأ هذا الفرح الانساني البعيد المنال ، فكان سعيدا به سعادة انسانية وكفى ، دون أن يحاول حتى أن يعي مبعثه ولا ما حصل له . وفي الحقيقة انه ادرك سريعا أن كل ذلك قصير الأجل ، فان

ما هو مقلق وصعب ظل يلازمه بعناد في هذا العالم ، واذا تراخى عنه ، فلوقت قصير ، ليحل محله هدوء بال يهبط عليه فجأة .

لم ينهض من زهور الخشخاش ، ولم ينظر اليها ولو مرة واحدة ، تثنيه عن ذلك لياقة خجول ، انطرح على بطنه ، واقتطف زهـور خشخاش قريبة منه ، وجمعها في باقة بشكل آلي . واستمر في ذلك تفعمه رقة هادئة متحفظة ، حتى سمع خطوات عجلى . رفع رأسه ، فلم ير أحدا تحت مسقط الماء . كانت جوليا تركض غير بعيد عنه ، وهي ترتدي سترتها المخططة اثناء سيرها ، متجهة ، الى المكان الذي تركته فيه . وضحك من جديد ضحكة خفيفة ، وقد لحظ نظرتها الجزعة المهمومة المصوبة الى البعيد ، ولكنه لم ينادها ، بل التقط السترة ، وسار في اثرها بلا عجالة .

دارت حول نبات الردوندرون بسرعة ، وشعرها المبلل الاسود كالقطران ، يلمع في الشمس، وتوقفت قرب ازهار خشخاش مسحوقة، وكأنها تعثرت . ولم يكن صعبا ، حتى من بعيد ، أن يلحظ المرء هلعها وذهولها ، وهي تنظر في ناحية ، ثم في أخرى ، وتندفع على المنحدر الى الاسفل . الا أن شيئا في اللحظة التالية جعلها تلتفت .

— ايفان !!!

وتمازج في هذا النداء الفزع والفرج والفرح في آن واحد ضربت كفا بكف ، وانطلقت للقائه كعصفورة . توقف ايفان . وبدا وكأنه لم ير منذ دهر هاتين العينين البراقتين ، وسمرة الوجنتين الناعمة ، وتناثر شعرها المقصوص القصير . كان كل شيء فيها يهفو اليه ، ولكنه امسك نفسه ، وصمت. وقفزت هي اليه تسحق ازهار الخشخاش بقبقابها ، وطوقت رقبته بكلتا ذراعيها ، وتدلت منها ، وألهبته بقبلة سكرى طائشة .

حبس انفاسه ، وهي ما تزال تعانقه ، دافعة رأسها الى الوراء بحدة ، وأخذت تضحك ، محدقة بهيام في وجهه الملتهب من لمسة شفتيها الباردتين الطريتين . وبعد ذلك فكت اصابعها ، دون أن تتوقف عن الضحك ، ودفعته دفعة خفيفة ، وارتمت على العشب . شع من عينيها شرر ، وتألق ، وانفتحت السترة المزررة بزر كالاصبع ، والتمع في المثلث بين نهديها صليب صغير ازرق من المينا . واستأثر هذا الصليب بنظرته لحظة . فانتبهت رأسا ، ولمت السترة ، وهي تضحك ، كما كانت ، بعينيها ، ووجهها ، وفمها العريض ذي الاسنان البيض ، وبكل جزيئة من جسدها الفتى البارد بعد الاستحمام .

الا أنه قطب حاجبيه فجأة ، وارتبك ، وشعر للحظات ، وهو واقف ، بأن شيئا ينهار في داخله، وقوة غير منظورة تخضعه لارادتها والآن فقط لم

يعد يقاوم هذه القوة ، وصار يخضع لها ، لأن في هذا الخضوع فرحا ، فتقدم خطوة من الفتاة. قطعت جوليا ضحكها فجأة ، وقفزت للقائه .

— ايفان ! — صاحت ، وقد رأت الزهور في يده — أهذه لي ؟ ها ؟ ها ؟

وفي تلك اللحظة فقط فطن ايفان نفسه الى باقة زهور الخشخاش المدعوكة في يديه بشكل غير معقول ، فضحك ، وضحكت هي ايضا ، وشمت الزهور ، واغرقت في الباقة وجهها الصغير الحلو . ثم وضعت الباقة على العشب ، وشرعت تقطف زهور الخشخاش حولها بسرعة شديدة .

— أنا يشكر ايفان ، يشكر كثير كثير ...

حاول ايفان ايقافها :

— لا لزوم للشكر .

— لازم كثير كثير للشكر ! ايفان يخلص جوليا ! روسو يخلص ايطالية ! هذا صحيح ! — قالت نشوى ، وهي ماضية في قطف الزهور . وبعد ذلك ركضت نحو ايفان وملء ذراعيها زهور، وألقت الزهور كلها على صدره . فقال مندهشا :

— ماذا تفعلين ! لماذا ؟

— لازم ، لازم !

اصرت ناطقة الكلمة بالروسية بشكل مضحك فاضطر الى أن يحتضن الزهور الى جانب

السترة التي لف بها الخبز . والظاهر أن جوليا شعرت بالخبز الملفوف ، فهتفت مكتسية الجد :

– خوبز !

– نعم ، خبز . تعالي نأكل .

قال ايفان بحيوية ، ووضع كل شيء على الأرض ، وجلس ايضا . وجلست جوليا الى جانبه بشوق .

– ١٦ –

– بودي أن نأكله كله رأسا!

قال ايفان ، وهو يمسك في يده رغيف الخبز اليابس الذي يزن زهاء كيلوغرام ، الخبز المدعوك المقطع من الحوافي واللذيذ رغم ذلك والشهي بحيث أن كليهما بلع لعابه مرة اخرى ، وهو ينظر اليه .

– كله ، كله – رددت جوليا كالصدى موافقة اياه ، غير صارفة عينيها عن الخبز .

نظر ايفان من فوق رأسها الى الجبل البعيد المكلل بالثلج ، وزفر :

– لا ، لا يمكن كله :

– لا يمكن ؟ لا ؟

– لا .

فهمت، وزفرت ايضا. وفرش ايفان السترة على العشب ، ووضع عليها بقية زادهما الاقل

من أن توصف بالمتواضعة . وصار عليهما أن يقتطعا حصتين متساويتين .

أخذ يقطع الخبز بعناية ، مقسما القطع الى جزئين ، شاعرا بلهفة الجوع لدى جوليا . وفي نفسه نشأت عاطفة جديدة نحوها ، ما بين ان تكون اخوية أو حتى ابوية ، ودية وكبيرة . وكانت هذه العاطفة تملؤه احتراما لها ، لتلك الفتاة غير المتعودة على ويلات الحرب والحازمة بشكل جنوني في انطلاقتها شبه العفوية نحو الحرية كالطائر .

قسم ايفان الخبز بانتباه ، يزن بنظراته الثاقبة كل كسرة ، كل فتات . وتقصد أن يجعل احدى الحصتين اكبر من الأخرى ، لأن في الثانية قشرة ، وهي حسب منطق معسكر الاعتقال ، اكثر قيمة من التي فيها لب ، وان كانت تساويها في الوزن . وحين قسم ايفان كل شيء دس في جيب السترة القطعة المتبقية ، وهي حوالى مائتي غرام ، وقال ببساطة وبدون شكليات الاقتسام :

— هذه لك ، وهذه لي . — وقدم لها القطعة ذات القشرة .

فرفعت حاجبيها الفاحمين بتصميم :

— لا ، هذه لايفان ، وهذه لجوليا . — وغيرت موضع القطعتين .

حدق في وجهها ، وابتسم .

— لا ، يا جوليا . هذه لك .

وأسرع فتناول حصته من السترة . تعبست جوليا باستياء مازح ، وفجأة ، وبدون توقع دست قطعتها في يد ايفان . فاسرع ايفان فدفعها الى الفتاة ، الا أن الفتاة تنحت ضاحكة ، ورفعت الخبز بيديها ، بحيث لا يستطيع ان ينالهما . استطاع ايفان ان يلمس اليدين ، وجفلت جوليا ، ومسته بصدرها عرضا ، وامسكت كتفه كيلا تقع . وانقطع ضحكها فجأة أربكه اقترابها المفاجىء ، فكبح في داخله نوبة جديدة من الفرح الفالت وتنحى ، وجلس على طرف السترة .وهي ايضا أبتسمت بمكر كالصبية ، ورفرفت اهدابها ، وأخذت تعدل السترة على صدرها.

قال وهو يقدم لها القطعة ذات القشرة :

— خذيها ، وكلي . انها قطعتك .

— لا .

وأخذت تقضم قطعتها وفي عينيها عناد عابث ، وأسنانها تتلألأ .

— قلت لك خذيها .

— لا .

— خذي .

— لا . — قالت بتصميم، وعيناها ضاحكتان.

فقال ايفان :

— أنت عنودة . طيب ، كما تريدين . — وعض قطعته .

وازدردت هي كل شيء بسرعة دون أن تشبع ، بالطبع ، وراحت تختلس النظر الى جيب السترة المنتفخ . لاحظ ايفان نظراتها وهو يمضغ الخبز بتماهل ، وأخذ يفكر لاإراديا : ماذا لو يأكلان كل الخبز الآن دون فضلة ، على الاقل ليشعرا بالشبع لأول مرة ؟ الا أنه طرد هذه الافكار بقوة ارادته ، لانه كان يعرف حق المعرفة ثمن حتى قطعة صغيرة كهذه . وبعد أن أتم أكل حصته سأل اخيرا :

– اتريدين بعد ؟

هزت رأسها بقطعية مشددة ، وكأنما تخشى أن تغير رأيها :

– لا ! لا !

وأشار الى القشرة التي ما تزال باقية في وسط السترة .

– وهذه ؟

– جوليا لا تريد .

– أذن بالقسمة .

– ما يعني بالقسمة !

وغضنت جوليا أنفها بهيئة تساؤل . وكانت الشمس تضيىء وجهها ، فاضطرت أن تثني قسماتها ، وكأنما تناكد ايفان في مزاح .

قطع ايفان القشرة ، وقدم لها جزءا ، تناولته بتردد ، وقضمت قطعة صغيرة وراحت تمصها .

– لطيف . شوكولاده المعتقل .

– نعم، الخبز في مثل هذه الحياة شوكولاده.
– أنا هربت نابولي . آكل شوكولاده . خوبز قليل . شوكولاده كثير .
قالت ذلك ، وهي تخاوص عينين سوداوين كالليل . ولم يفهم ايفان فسأل :
– هربت الى نابولي ؟
– سي . هربت من روما . من أبي هربت .
– من ابيك ؟ ولماذا ؟
– آه ، حكاية – ردت بدون رغبة ، وقضمت قطعة أخرى ، ومصتها ، ثم عاينت القشرة باهتمام بالغ – أبي يريد أنا يتزوج ، لا يحب زوج .
زوج ! وخزت هذه الكلمة احساسه بشكل غير متوقع ، فاطبق فكيه ، وقطب حاجبيه . والظاهر أنها شعرت بذلك وألقت عيناها المداعبتان نظرة شزراء على وجهه المكتئب ، وكشرت :
– أنا لا يتزوج .لا عندي زوج . السينور زانغاريني ما كان أريد .
فسأل ايفان ، وهو مايزال مقطب الجبين :
– ولماذا لم تريدي ؟
– أوه ، هذا سر .
– أي سر ؟
فأخذت تمص القشرة ، وهي تنظر الى الجانبين تارة ، وتحدجه من تحت حاجبيها تارة

أخرى ، وجلس ايفان مطرقا بصره الى الأرض ، يجتث خصل العشب من جذوعها .

— سر ، سر صغير . جوليا كان يحب ... كيف يسمى بالروسي ؟ واحد جوفينوتو — ، الشاب ماريو .

— هكذا ؟ — قال ، وقذف خصلة العشب التي اقتلعها ، فبددت الريح العشب في الهواء رأسا . انقلب ايفان على جنبه . ولا يدري لماذا لم يرد الآن أن ينظر الى الفتاة ، مكتفيا بالاستماع اليها بسحنة جهماء . وقالت هي ، وكأنها احست بهذا التغير فيه :

— كان شاب لطيف . آخذت مسدس ، وهربت الى نابولي مع ماريا . نابولي حرب . الايطالي يحارب دويتش . جوليا يحارب — وتنهدت — بارتيزانو ايطالي قليل . المان كثير.

فحدس ايفان :

— يعني حاربتما الالمان ؟

— سي . نعم .

— اهوه ! — قال مقتصدا باظهار دهشته ، وسأل — وأين صاحبك ماريو الآن ؟

لم تجب رأسا ، ضمت ركبتيها الى صدرها، وطوقت ساقيها الطويلتين بذراعيها اللدنتين ، ووضعت عليهما حنكها ، ونظرت في البعيد ، وقالت بالايطالية :

— ماريو فو اوجيزو .

– قتل ؟
– سي .
وصمتا برهة . تغلب ايفان على جموده ، ونظر اليها .
وصمدت هي لنظرته هذه ، وقد لاح عليها الجد . ثم أخذ الدفء يشيع في عينيها تحت نظرته تدريجيا . وذاب الحزن الذي غشاهما بعض الوقت ، فعادت جوليا تضحك .
– لماذا ايفان يعاين ، يعاين ؟
– هكذا .
– ما معنى هكذا ؟
– هكذا يعني هكذا ! لنذهب الى تريسته .
– أوه ، تريسته ! – وقفزت من العشب بخفة ، ونهض هو ايضا وألقى السترة على كتفه بشمرة واحدة ، وبخفة غير منتظرة . وسارا الى الاسفل عبر الحقل الواسع من زهور الخشخاش .
أخذت الشمس تزداد حرارة . وظل جبل الدب يقصر في الوادي شيئا فشيئا ، والاغبرار الرمادي القائظ يرتعش على سفح الجبل البعيد ، ويغطي المنحدرات المشجرة . والجبال الثلجية وحدها في الاعلى كانت تتلألأ ، كاشفة كل رقعة شاحبة على منحدراتها المزركشة ، وكأنما تعرضها للعيان .

– تريسته لطيف . تريسته بارتيزانو! تريسته بحر !

انا لحد الآن اسمع
صوتك بين الزهور

انطلقت جوليا قائلة ، ولفرط امتلائها بالمشاعر السارة ، كما يبدو ، راحت تغني بالايطالية :

كانت تترنم بكلمات الاغنية بصوت خافت، ولكنه عذب جدا . ولم يعرف ايفان اية اغنية هذه . كانت تموجاتها النغمية تشبه امواج بحر هادىء . ومع ذلك الشيء الوديع الحلو ذو القوة السحرية استهوى ...

ولكيلا اتعذب ،
لكيلا اموت
افكر فيك ، وأحبك ...

كان ايفان يستمع محتبس الانفاس الى الرجع النغمي لعالم آخر غير مرئي ، فاذا بالفتاة تقطع غناءها ، وتستدير نحوه :

– ايفان ، علمني أغني «كاتوشا» !

– «كاتوشا» !

– سي ، «كاتوشا»

وترنمت بيت من هذه الاغنية الروسية محرفة الكلمات ، وقد دفعت رأسها الى الخلف ، فأخذ ايفان يضحك من تحريفها للكلمات ، ومن نطقها الطفولي ، رغم أنها ادت اللحن بشكل لا بأس به .

– لماذا انت يضحك ؟ لماذا يضحك ؟

فعدل لها ما نطقت به معيدا اياه على سمعها بشكل صحيح ، فاستمعت وعيناها ضاحكتان ، وكانت تنود برأسها:

– لطيف . انا يفهم .

وكررت ما قاله بنطق اسلم ، فقال :

– الأن أحسن . فقط أن تقولي «يابلوني» لا «يافيني» أتفهمين ؟ يعني حديقة تفاح .

– نعم ، يفهم .

وبدأت تغني اغنية «كاتوشا» باجتهاد تلميذة مدرسة ، ناطقة الكلمات بحرقة واستماتة ، فكان ذلك يضحكه ، فيرتاح لها كما يرتاح لطفل مرح رقيق طائع . سار الى جانبها ، وظل طوال الوقت يبتسم في قلبه لفرح انساني بهيج هادىء ، لم يشعر به منذ زمان ، ولا يعرف من أين ولماذا اهل عليه ، ربما من منظر السماء الصافية العالية ، والشمس السخية ، وربما من اللوحة الساحرة للجبال أو الرحابة المترامية حوله ، أو ربما من المهرجان النادر المثال لزهور الخشخاش التي يملأ شذاها القوى بشكل مدهش

كل جنبات الوادي . وبدا كل شيء وسط هذه الجبال والمروج يعبق بشيء متهلل حنون ، فكان لا يصدق حتى بالخطر ، بالوقوع في الاسر ، باحتمال أن يطارد ، ويتصور لسبب لا يعرفه أن كل ما حصل له في المعسكر بما فيه من رجال الاس اس ، والموت ، ورائحة المحارق المقززة ونباح الكلاب الكريه ما هو الا كابوس عابر حلم به . فاذا كان كل ذلك حقيقة فمن اين يمكن ان يكون هذا النعيم الفردوسي على الارض — وأية قوة للحياة صانت نقاوته من جنون الناس الاجرامي ؟ ولكن هذا الشيء الكريه لم يكن حلما مع الأسف ، ولم يكن شبحا ، فقد كانت ثيابهما المخططة الملونة تذكرهما في كل لحظة بما كان، وبما لم يتخلصا منه الخلاص النهائي حتى الآن . وقد بدت ثيابهما هذه لايفان ، وسط نقاء الارض العاطر مقيتة حتى أنه خلع سترته وغطاها بسترة النمساوي الجلدية . توقفت جوليا عن الغناء ، وتطلعت باسمة الى كتفيه العريضتين الملوحتين قليلا .

— أوه ، هرقل ! هرقل روسي !

فاعترض ايفان بتواضع :

— اي هرقل ! أنا انسان منهك .

— لا ، لا ! هرقل !

وربتت على ظهره العاري ملاطفة ، وضغطت بكلتا يديها على ذراعه المسبلة .

– قوي ، لطيف ، روسو . لماذا أسير ؟
– أسير ! لم اوقع نفسي في الأسر ، بل أخذوني أسيراً .
– كان لازم تحارب الفاشي ! – وهزت قبضتها الصغيرة في الهواء بحزم .
– حاربت قدر ما استطعت ، ولكن ...
رفع كوعه ، وأدار لها جنبه الآخر ، واذا بالاشفاق ، القريب من الفزع ينعكس رأسا على وجهها الحيوي .
– ياه ، ياه ! سانتا ماريا !
فتنهد ايفان :
– وتقولين هرقل .
– يوجع ؟ – تلمست بلمسة حذرة متأنية ندبة واسعة جسيمة ، هي أثر طعنة حربة . ففرك جنبه بهمة .
– الآن ، لا يوجد وجع .
– ياه ، ياه !
قال ايفان بلطف :
– لا تخافي ، يا عجيبة . هيا ، اضغطي اقوى .
ولكنها لم تجرؤ . فأخذ أصابعها الرقيقة في كفه ، وضغطها على الندبة . صاحت جوليا بفزع، انجذبت نحوه، لمس ايفان الفتاة من كتفها، ومرة أخرى حملته هذه اللمسة القصيرة على أن يسحب

نفسه عنها بسرعة . «لا ، لايليق . لا يليق أن ترخي نفسك ! يجب الاسراع اكثر» .

ونظر ايفان الى جوليا نظرة قصيرة، وقطب حاجبيه وقال :

– المسألة يجب أن نسرع . فاهمة؟

– نعم ، – قالت موافقة ، وابتسمت باقتضاب ناظرة في عينيه وفي ذهنها فكرة متوجسة مضمرة .

– ١٧ –

نزلا على المنحدر من طرف المرج العلوي الى وسطه . وعند ذلك أخذت زهور الخشخاش تقل شيئا فشيئا ، لتحل محلها زهور أخرى . وفي مكان ما كانت زهور أذن الفأر تتجمع زرقاء شذية ، وتتمايل أزهار الجريس مع الريح ، ويبعث الدوار في الرأس الشذى القوي للازاليا الصفراء . واحيانا كانت تتخلل حقول الزهور بقع صخرية جرداء تكثر قربها دائما نباتات شوكية تضايق بشكل خاص قدميه الحافيتين . أخذ ايفان يتلمس طريقه بحذر اكثر، ناظرا الى مواضع قدميه . وذات مرة لمعت قطرة حمراء في العشب امام عينيه ، فانحنى ، فوجد بعض ثمار الفريز البري بين اوراقها الصغيرة المسننة . وما ان قطفها حتى رأى على مقربة

ثمارا حمراء مثلها. وعند ذاك وضع السترة، وقعد. واندفعت جوليا أيضا بصيحة الاغتباط لتجمع الثمار .

كانت الثمار كثيرة كبيرة الحجم ريانة ناضجه في كل مكان تقريبا . فأخذ ايفان وجوليا يجمعانها ويأكلانها بنهم وملء الاكف ، ناسين المطاردة والخطر . اسرعت الفتاة مقتربة منه ، وفي عينيها الحيتين ابتسامة دعابة ماكرة مخفية، وركعت على ركبتيها ، وبسطت طرف سترتها الملطخ بعصير الفريز ، حيث كانت كومة من ثمارها الناضجة الحمراء . وعرضتها بغنج مقصود :

— تفضل ، روسو ايفان .

— ولماذا ؟ شبعت .

— لا ، لا . ايسن ! ايسن !

قالت مستخدمة الكلمة الالمانية لـ «كل» . وبعد ذلك أكلت هي شيئا ، ثم عادت فرفعت حفنة الثمار الى فمه . فوجد ايفان ثمار يديها ، ولسبب لا يعرفه ، طعما مختلفا تماما عن تلك الثمار التي أكلها واحدة واحدة. فالتهمها بشفتيه، وعض باسنانه مازحا بشرة كفها الشذية الدافئة.

توعدته جوليا بلهجة لعوب :

— لا ، لا !

أكلا البقية سوية . ونهض ايفان من العشب، ورفع السترة المطروحة على زهور الخشخاش :

- هيا بنا ؟
رددت موافقة :
- هيا بنا !
واستأنفا السير في ارتياح متبادل ، وتقارب فيما بينهما . وضعت جوليا ذراعها على كتفه واثقة .
قال ايفان وهو يحطم الصمت الهادىء اللطيف ، والمحرج لسبب ما :
- الفريز لطيف . كنت في بعض فصول الصيف قبل الحرب اتغدى عليهه فقط . على الفريز والحليب .
فقالت مستغربة :
- أوه ، روسو نباتي . جوليا لا نباتي ، جوليا يحب البفستيك ، وسباغيتي : واومليت .
- معكرونة ايضا . - اضاف ايفان ، وضحك كلاهما .
- أنا ، أنا معكرونة - أكدت جوليا ، وناكدته بحماس - وروسو الفريز؟
وافقها ايفان في غير بهجة :
- يحدث . يضطر الانسان حين يعضه الجوع .
نظرت جوليا اليه باندهاش :
- ولماذا جوع ؟ لماذا جوع ؟ روسيا وجوعان ؟ روسيا بلاد غنية كثير ؟ صحيح ؟
- صحيح . كل شيء صحيح .

– ولماذا جوع ؟ قل ! – تساءلت مصرة ، والواضح أن كلامه أقلقها .

لزم الصمت ، وهو يطأ العشب ، ويوازن في فكره بتردد : هل هناك حاجة الى أن يحدثها عما كان . ولكنه كان قد وثق كليا في عاطفتها الودية نحوه ، وانجذب هو اليها ، لهذا أخذت تستيقظ في داخله الحاجة المكبوتة منذ زمان الى الصراحة .

– احيانا يحدث موسم سيء في المحاصيل، في عام ١٩٣٣ مثلا أكل الناس العشب ...

– ما عشب ؟

– أي عشب ؟ – وانحنى واقتلع حفنة من العشب – مثل هذا العشب . بلا زهور ، بالطبع. ابي مات من الجوع .

توقفت جوليا مندهشة ، ولاح الاكتئاب على وجهها الصارم، ونظرت الى ايفان نظرة فاحصة متشككة ، ولكنها لم تقل شيئا ، سوى أنها اطلقت يده وانطوت على نفسها فورا ، ولسبب غير معروف . وواصل هو سيره بهدوء مغموما بذكرياته الخالية من البهجة .

أجل ، جاعوا ، وليس في عام ٣٣ فقط . وكانت البطاطس تنقذهم عادة ، ولكن هي الأخرى لم تكن دائما تكفيهم حتى الموسم الجديد ، وبعد وفاة الاب بقي في العائلة اربعة أطفال ، اكبرهم ايفان . واضطر الى أن يعيل الاطفال مع أمه ،

ويطعم العائلة . آه ، كم كانت الحياة شاقة عليه !

سار مشغول الفكر ، ناظرا الى قبقابيها اليماميين اللذين كانا يلوحان في قدميها على العشب في الاسفل ، والى ظليهما القصيرين يطوفان في سيرهما متحركين بهدوء . الا أن جوليا أخذت تتعب ، وشعر ايفان بتغير في مزاجها ، ولكنه لم يلتفت .

وأنشأت الفتاة تقول ، وقد ظهر تحد في عينيها اللتين بردتا فجأة .

— وكنت في سيبيريا ؟ كولخوزي غير صحيح ؟

توقف واعتراه فيما يشبه الرعب ، وامعن النظر فيها .

— ما هذا الكلام ؟ من قال لك ؟

— واحد روسو غير صحيح قال . انت تريد يقول . أنا يعرف ! .

— انا ؟

— انت ! تكلم !

— لا اريد شيئا . ماذا اقول لك ؟

— طيب ، قل : جوليا غير صحيح ، غلطان .

نظر الى الفتاة ، فرأى وجهها قد صار حانقا ولمعت عيناها لمعانا حادا ، وأختفى ماكان يلوح عليها من ود نحوه ، فحاول بجهد أن يفهم سبب هذا التغير ، ومغزى اسئلتها المزعجة .

— طيب ، تكلم ، قل !

والظاهر أنها سمعت شيئا بالفعل ، ربما في المعسكر او ربما في روما . ولكنه لم يعد في مقدوره الآن ان يوضح لها شيئا ، وقد ندم على ذكره الجوع .

راحت جوليا تستفسر باصرار :

– وكان ظلم .

– اي ظلم ؟ عم تتحدثين ؟

– ساقوا الناس الى سيبيريا ؟

– الى سيبيريا ؟

ونظر في عينيها الواخزتين نظرة متفحصة ، وأدرك أنه اما ان يقول الحقيقة واما أن يختلق شيئا . الا أنه لم يكن يحسن الكذب ، ولكي يقطع هذا الحديث رأسا غمغم :

– ساقوهم حين كانوا ينتزعون ملكيات الكولاك .

غضت جوليا شفتيها بمرارة :

– غير صحيح ! – صاحت فجأة ، وكأنما طعنته بنظرتها ، لكم كان في عينيها من مرارة وكدر وعداء سافر تماما .

– غير صحيح ! لا ! لا . وفلاسوف !

ندت منها صيحة مفاجئة ، وغطت وجهها بيديها . اندفع ايفان نحو الفتاة ، ولكنها اوقفته بـ «لا» الناهية القاطعة الغاضبة ، وركضت على المنحدر الى ناحية . وقف لا يعرف ماذا يفعل ، فظل ينظر في اثرها مذهولا . وارتبكت افكاره

فجأة . وشعر بان شيئا سخيفا منحوسا غير مفصح عنه قد وقع ، ولكن لم يعرف كيف يصححه .

ركضت جوليا الى الحدبة العارية ، وتسلقتها ، وعكفت ركبتيها مرتعدة . ولم تلتفت الى ايفان حتى بنظرة .

قال ايفان لنفسه مذهولا : «عجيبة !» «فلاسوف !» وزفر وراح يطبطب على العشب . وبدا وكأنما صدر منه بالفعل مالايبعث على الرضى ، وحطم بتسرعه وفاقه الضروري منها ، والذي تطلب جهدا كبيرا ، وأخذ كل ما في داخله يئن عليه ويعذبه لاحساسه بذلك ، وذبلت الفرحة الهادئة التي اهلت عليه قبل حين ، واحس بوحشة الروح والمرارة .

انها كانت قد سمعت ، بالطبع ، عما كان يجري في بلاده في الاعوام البعيدة . ومن المحتمل أن ذلك قد صور لها في ضوء مختلف تماما عما هو في واقع الأمر ، ولكن كيف يوضح لجوليا الآن كل شيء بحيث تفهم ولا تحقد .

حول ايفان السترة من كتف الى كتف ، وراوح في مكانه . كانت الشمس تلذع قفاه وكتفيه بشدة ، ولم يستطع مهما فكر أن يفهم ما الذي حصل بينهما ، وما هو ذنبه في هذا الأمر . كان الافضل ، بالطبع ، أن يسكت عن الجوع ، وربما ألا يذكر تجريد الكولاك من ملكياتهم ، رغم أن اخفاء الحقيقة لا يريح النفس ،

ولكن عليه الآن أن يفعل ذلك ، كما يتضح . فمن المكدر جدا أن يفقد ثقتها في هذه اللحظة بالذات، بعد كل ما عاناه سوية . وخلال ذلك شعر ايفان بشكل لا واع أن الامر لم يكن متعلقا به . فقد كان يتولد في نفسيهما كليهما شيء عظيم ذو شأن يبدو كل احتراس ازاءه مهينا .

والآن عليك أن تنتظر ما في الغيب ! وكان من الممكن أن تتصور كيف ستستقبل جوليا حقيقته التي سيقولها بدون مداورة ، وهل سيكون في وسعها أن تفهم كل تعقيدات ماكان يحصل في بلاده ؟

ومهما يقال فان الوضع كان بالفعل اكثر من أن يوصف بالصعب .

وليكن ! لن يكذب عليها ، وسيقول كل ما حصل ، واذا كان لهذه الفتاة قلب مرهف في صدرها ، فانها ستفهم أنه لم يكن من رجال فلاسوف ابدا ، وستتخذ الموقف الذي ينبغي أن تتخذه منه ومن شعبه الجدير بالاحترام . وقد ادرك ايفان ذلك فجأة بوضوح وجلاء فخف الثقل على صدره ، وهدأت نفسه ، وكأنما اقدم على شيء ، ولم يبق الا انتظار النتيجة .

— ١٨ —

ولكن لم يكن لايفان من الصبر ما يكفي للانتظار الى النهاية .

كانت جوليا تقعد على مبعدة ، وقد ادارت له ظهرها ، وراحت تنبش في الارض مستغرقة الذهن . فتريث ايفان مبطئا خطوه ، وتناول السترة ، وسار نحوها بهدوء . ارتعدت جوليا حين سمعت خطواته ، وألقت عليه نظرة احتجاج، وقفزت من جلستها بسرعة ، وركضت على المنحدر مسافة أخرى . صعد ايفان على الحدبة العارية بلا استعجال ، وتوقف . كان عليه أن ينتظر ، أو ربما يسير . لم يكن يعرف بالضبط ماذا يفعل . ابتعدت جوليا قليلا ، واختفت دون ان تلتفت ، وراء صخرة حادة كانت تبرز من العشب كناب هائل عجيب .

عند ذاك ألقى ايفان السترة عند قدميه ، واستلقى عليها ، وقد عزم على أن ينتظر بصبر ما سيحدث بعد ذلك .

صار الجو حارا ، وكانت رائحة القيظ المغبرة الجافة تتصاعد من الارض الكلسية المفخورة بالشمس ، والمرقطة بعشب صلب ، وكأنما تتصاعد من موقد روسي مشتعل . وشعر ايفان بأن الحر والعرق يعلكان كتفيه وظهره . وحوله كان الذباب الصغير المتعدد الالوان يتلامع على عشب المرج ويرفرف في الهواء . ومن حين لآخر كان ايفان يلتفت لينظر الى الصخرة التي اختفت جوليا خلفها ، ولكن جوليا لم تلح لبصره ، فأخذ النعاس يرنق عينيه من الاسترخاء وثقل

الهواء ، ومن مشقة الانتظار . يبدو أن ثمار الفريز البري أو شدة الحر اخمدت احساسه بالجوع ، ولكنه كان يشعر بالعطش . وفكر ايفان مع نفسه : «كأن لم يكن لي هم آخر» الأحرى به أن يواصل السير ، ويصعد الى اقرب ما يمكن من السلسلة الجبلية الثلجية ، والبحث هناك عن ممر ، والحصول على زاد . وبالفعل لا أسخف مما آل اليه كل شيء في هروبه هذا الناجح الى حد كبير . بدأ ايفان يضرب الارض بكسرة حجر ليطرد النعاس من جفنيه ، فنبع من العشب أمامه خنفس كبير أسود ذو مجسات ضخمة ، وتوقف مندهشا كما يبدو من هذا اللقاء المفاجىء ، واجحظ عينيه وانتظر محركا شاربيه الطويلين اللعوبين . وحين مسه الحجر مسا خفيفا بسط كل أرجله الاثنتي عشرة ، ووقع على جنبه .

مد ايفان يده لنقف هذه الحشرة المقبضة للنفس باظفره ، واذا به يسمع خطوات من ورائه.

استدار بحدة شديدة حتى أن الشخص ارسل صرخة من المفاجأة على ما يبدو ، وقفز في ناحية بخفة غير اعتيادية . وانسل الى مسافة قريبة تماما ، ووقف على العشب متوجسا يحدق في ايفان متضرعا بعينين مخبولتين . انه المعتقل الالماني المجنون الذي صادفه ايفان من قبل . قال ايفان مبتسما بسخرية :

– يا مرحبا ! يعني ما تزال حيا ؟
اندهش ايفان ، لانه لم يكن يتصور قط أنه سيراه هنا ، سيرى هذا لمتوحش ، المطارد ، المسود من العرق والوحل ، بوجهه اليابس الذي لايكاد له شبه بوجه انسان ، في سترته المحلولة وسرواله المهلهل . ثم أن الالماني كان يعرج ويطأ الارض بقدم واحدة بعسر . فاية صلابة عجيبة جعلته يجرجر نفسه ، وهو في هذه الحال . كان يتعقبهما ملازما اياهما كالشبح ، ولا أحد يعرف على أي شيء كان يعول.
قال هذا الالماني بخفوت ولكن باستماتة :
– بروت .
قال ايفان مندهشا :
– بروت مرة أخرى ؟ أتحسب تموينك علينا ؟
خطى المجنون بضع خطوات مترددة نحو ايفان ؟
– بروت !
– كنت تنوي الذهاب الى الغستابو ، الى صاحبك هتلر !
– نيكس هتلر ! هتلر انتهى .
– أنتهى ؟ حبذا لو كان ذلك من زمان .
مد المجنون ذراعيه العظميتين غير فاهم في اغلب الظن ، وانتظر بصبر وتحفز .
– لابأس ، يا فريتس التعيس !

ادخل ايفان يده في السترة ، وقطع كسرة صغيرة من رغيف الخبز دون أن يخرجه . بدت الحيوية على الالماني حين رأى الكسرة في يد ايفان ، والتمعت عيناه ، ومد الى الامام يديه المرتعشتين الخارجتين من كمين قصيرين ممزقين .

– بروت ، بروت !

– خذ ! واغرب من هنا .

رمى ايفان الخبز للالماني ، ولكن الالماني لم يستطع ان يلقفه ، واندفع وراء الخبز جريا على الارض ، واختطفه منها مع العشب والرمل ، ووثب . ثم تلفت بجبن ، وانحدر على المنحدر في ناحية ، منقلا قدميه أسرع فأسرع ، والظاهر أنه كان يتوقع مطاردة ، ويخاف منها .

وفكر ايفان : «لعله يحل عنا الآن» . ان هذا المعتقل يسبقهما وهذا أقل خطرا مما لو ظل يلاحقهما على الدوام . راقبه ايفان بنظرة ساهمة، حتى غيبه منخفض ، واستلقى من جديد .

وقد خمد حنقه الذى كان بالامس على هذا الرجل رغم انه لم يكن يشعر نحوه بشفقة لأن وجوه الناس الكثيرين الذين اغتالهم الالمان ما تزال حية جدا في ذاكرته. صحيح أن من الممكن أن يكون هذا معاديا في فكره للفاشيين الذين اوصلوه الى حالة حيوانية بقسوتهم على بني وطنه ، ولكن من الممكن ان يكون أيضا من رجال

التنكيل في شرذمته النازية لم يحالفه الحظ في مكان ما اثناء خدمته الاجرامية . فقد كان معسكر الاعتقال يضم مثل هؤلاء ايضا . فعلى سبيل المثال لن يسلم آمرهم زاندلر (اذا كان قد بقي حيا) وسيعاقب على هروب الأسرى الأخير وانفجار القنبلة ، وقد يسجن بدل الأسرى الذين فشلوا في مراقبتهم . وعلى العموم لا يقيلونه من الآمرية ، بل ويعهدون اليه بالمسؤولية (ويسمى معتقلا المانيا ايضا) لقد كان كلبا في علاقته مع الناس ، وسيظل كذلك ، هذا اذا لم تشتد كراهيته للأسرى بسبب فشله الشخصي .

لقد بلغ الفاشيون حدا كبيرا فيما يسمونه بلغتهم «انتمينشونغ» * — وهو أحقر الافعال السود على وجه الارض . واذا كان من الممكن تفهم قسوتهم الوحشية ازاء من يخالفونهم في الرأى ، فان العقل عاجز اطلاقا عن فهم قسوتهم على ابناء جلدتهم الذين لم يروقوا الرؤساء بشيء ما . وصار خوف العقاب من فوق الحافز الاساسي لافعالهم . فقد كان الجميع يعيشون تحت خطر التنكيل وتخفيض الرتبة ، والارسال الى الجبهة ، ومضايقة الاهل . ولهذا فلربما أخذ بثأر هذا الرعب كل من اتيحت له الفرصة — من الأسرى

---

* حرفيا : اللاانسانية ، الفساد ، وهو جزء من الايديولوجية الفاشية .

والمعتقلين الالمان في المعسكرات ، وسكان المناطق المحتلة . وليبدو غريبا أن الالمان كانوا يحاربون في الجبهة بشكل لا بأس به . ربما لأن الرعب من العقاب هناك اكتسب معنى مضاعفا ، بينما لم يكن الخيار كبيرا : اما محاكمة عسكرية في الميدان ، واما رصاصة سوفيتية .

ولكن هل يعقل أن في ذلك شيئا بطوليا ؟ لقد كان الألمان يتظاهرون بشجاعتهم بشكل ظاهر وكان ايفان ينكر هذه الشجاعة، رغم أنه لم يكن يعتبر نفسه بطلا ولا جسورا في يوم من الايام .

ولو كان اكثر تصميما ، لما وقع في الأسر في اغلب الظن ، ولاتخذ شيئا في اللحظة الاخيرة التي حددت الى الابد ماضيه ومستقبله . ربما كان يجب أن يصفي نفسه . وومض في ذاكرته للحظة ذلك اليوم ، وحربة البندقية المسودة من الطلقات ، والتي ارتطم ايفان بها . وقد ارتد عن الدبابة ، ولم يعلق في ذاكرته غير الحربة وفردة حذاء طويل له أذينة مشمعية تبرز من نهاية الساق ، ومقبض القنبلة اليدوية ايضا . ثم غطى على كل شيء ألم نافذ في الجنب . هتف بشيء ما ألماني غير حليق مرعب من الغبار الذي علق به ، وعند قدميه كان يرقد جسد عبد الرحمانوف المدمى ، وعلى مقربة كانت تهدر دبابة . وعند ذاك فقد ايفان السيطرة على

نفسه لحظة كلفته كثيرا ، وبقيت آثارها في روحه وفي جسده الى الابد .

في الفوج لم يكن ايفان مبرزا بشيء عن مشاته الآخرين . وقد حصل على ثلاث شهادات تقدير من الآمرية على المعارك السابقة ، ومداليتين «للشجاعة» وكان يفكر في أنه غير قدير على اكثر من ذلك . وعندما وقع في الأسر، هناك حيث لا يوجد مايلهم انسانا على المآثر البطولية ، ولامكافآت ، وحيث أقل خروج عن الطاعة يودي بحياة الانسان ، تولدت في نفسه تلقائيا روح التمرد ، والجسارة والعناد . فقد خبر في الأسر خبايا الفاشية ، وادرك لأول مرة ، كما يبدو ، أن الموت ليس أسوأ ما في الحرب من مصائب .

صدر صوت جوليا من فوقه :

– اعطيته الخوبز ؟

جفل ايفان من المفاجأة ، والتفت لفرحه التفاتة حادة .

– اعطيته الخوبز ؟ – سألت جوليا ، والانزعاج السابق مايزال يرتسم على وجهها – يعني لا يروح الى تريسته ؟ كل خلص ؟ ها ؟

– ما هذا الكلام ! – قال ايفان مبتسما – لم أعطه غير قشرة .

غضنت جبينها ، وتفرست فيه بامعان . وعند ذاك اخرج بقية رغيف الخبز من جيبه .

– انظري ، لم أعطه غير قشرة ، فاهمة ؟

صمتت جوليا متغلبة على شكوك في داخلها . وارتخى جبينها بالتدريج .

– نروح لتريسته ؟ نعم ؟ لا ؟

– نذهب بالطبع . وكيف تصورت اننا لا نذهب ؟

كان وجهها ما يزال يعكس صراعا في داخل نفسها . جذبت سترتها على صدرها ، وعزمت على شيء في سرها ، واذا بها تهبط على الأرض قربه . عكفت ركبتيها ، وارتفقت عليهما ، وغطت وجهها بيديها . وكان ايفان يجلس قربها مستعدا لأن يساعدها ، ولكنها كانت تغالب نفسها على ما يبدو ، وبعد قليل نفضت شعرها ، ودفعت رأسها الى الوراء . وقالت :

– روسو ! أنت روسو لطيف ، لطيف وضغطت على يده – فلاسوف لا . أنت بونو ، جوليا بلوخا * .

فاعترض ايفان برفق :

– ولم هذا ؟ لم ؟ لا لزوم .

– لزوم ، لزوم – قالت دون أن تصغي اليه .

---

* أنت جيد ، وجوليا سيئة (مزيج من الايطالية والروسية) .

والظاهر أنها فهمت شيئا، وراحت تترجاه الآن:
– لا يعتب ايفان على جوليا .
– لا بأس . كل شيء مضبوط .
تناول في يديه كفها الصغير المخشوشن في حذر ، وهو جالس على الأرض . ولم تسحب جوليا كفها منه .
– ايفان ، لا يعتب . – قالت ونظرت في عينيه لأول مرة – ايفان لا يعتب على جوليا . ايفان يعرف حقيقة ، جوليا لا يعرف .
– لا بأس ، لا بأس ... اريدك ...
– جوليا يحترم ايفان كثير كثير . يحب ايفان .
قالت ذلك فارتعشت يده التي كانت تضم كفها ، ارتعاشا لايكاد يلحظ . قال ليحول الحديث الى مجرى آخر :
– ألا تريدين أن تشربي ؟ شيئا من الماء ها ؟
زفرت وسكتت ، ناظرة اليه ، وقد طوت في عمق عينيها المتسعتين ندما وفيضا من الدفء نحوه .
– ماء ؟ أكفا ؟
– نعم ، ماء . يبدو هناك جدول . هيا بنا !
ونهض مسرعا ، ونهضت هي أيضا ، وامسكت ذراعه أعلى من المرفق ، وضغطت خدها عليها بوحشة فمسد هو على شعرها باليد

الأخرى ، ولكنه انزل يده ، بعد أن شعر بأنها تصلبت من الداخل .
وبهذا الشكل سارا نحو حافة المرج .

- ١٩ -

كان الجدول غير عميق ، ولكنه موار جدا ، فقد كان سيله العريض ينطلق بمائه المتثلج ويلطم الصخور بزبد أصفر ، ويلقيه على الشاطىء الصخري المبلل . وفي أحد المنحنيات خلف على العشب شريطا عريضا من الحصى ، اجتازه ايفان وجوليا ، وشربا بكفيهما حتى ارتويا . وابتعدت الفتاة نحو الشاطىء ، بينما طوى ايفان سرواله الذي مزقه الكلب ، وتوغل أعمق في الماء ، كانت قدماه تئنان عليه من البرد ، وكان من الممكن أن يطرحه التيار السريع ، ولكنه كان يريد ان يغتسل ، لأن العرق كان يؤاكل وجهه . مسح خديه الناميين الشائكين راغبا أن يرى صورته في الماء ، ولكن التيار الجارف لم يتح له ذلك . وفكر في قلق مفاجىء : «يبدو انني صرت كالمتشرد» ونظر الى جوليا ، وسألها :

— لحيتي طويلة مرعبة ؟ — ولكنها لم تجب، فقد كانت تجلس جامدة مستغرقة الفكر ، تنظر الى نقطة واحدة على الشاطىء .

— أقول هل أنا مرعب ؟ ربما كالعجوز ؟

انتفضت ، واصغت محاولة أن تفهم سؤاله ، ولما رأته يحك خديه المشعرين حدست فجأة .
– لطيف ، ايفان . فوندرشون كثير .
كان ايفان يغتسل ويفكر في أن شيئا حصل لها ، فانها قلقة من شيء ما ، وتكابد ، فهي لم تكن بهذا السهوم حتى في اصعب ساعات الهروب . وبشكل عام ليس من طبعها هذا الاستغراق ، يعني أن ايفان سبب لها ألما بينما هو ، على العكس من ذلك ، قد تخلص من كل مخاوفه السابقة ، وكان يستريح نفسيا في فسحة المرج هذه . وقد طابت صحبته لها ، فكان يريد أن يبدد خوفها ، ويرى جوليا كما كانت مخلصة ، مرحة ، ميالة الى الثقة . ربما كان يجب أن يلاطفها ، ويهدئها . الا انه لم يقدر أن يتجاوز حدا يفصل بينهما ، وان كان يود ذلك . لقد كان فيه شيء خجول صبوي يهفو نحو الفتاة ، ولكنه كان يكبته، ويتردد ، ويتباطأ .
وحين انتهى من الاغتسال غرف ماءا في راحتيه ونثره على جوليا ، فجفلت الفتاة ، وتطلعت اليه في حيرة ، وضحكت ضحكة مقتضبة، وابتسم هو ايضا ، ابتسامة غير مألوفة له ، شملت كل وجهه الملتحي العريض .
– خفت ؟
– لا .
– ولماذا سرحت تفكرين ؟

– كذا .
– ما هذه ال «كذا» ؟
– كذا–قالت طيعة–ايفان كذا، جوليا كذا.
كانت تتقبل مزاحاته برضى رغم أن شيئا كان يثقل على نفسها . قلصت عينيها ، وراحت تنظر اليه مبتسمة ، وهو يطلع على العشب بمشية متأنية ، وقدماه المبللتان تتركان اثارا على الحصى . قال وهو يتذكر حديثهما قبل حين:
– صرت تتقنين طريقتنا في التعبير بسرعة . يظهر أنك كنت مقتدرة في المدرسة .
– أوه ، كنت فوندر كيند * – قالت مازحة ، وفجأة ضربت كفا بكف ، وتأوهت – سانتا مادونا ، ايلسنغويه !
– ماذا ؟
– دم ، دم ! ايلسنغويه !
أنحنى . كان خط دقيق من الدم يسيل من ركبته على قدمه المبللة ، لقد انفتح جرحه . لا بأس . فهو حتى الآن لم يجد الوقت ليعاين الجرح ، ولكنه جلس الآن قرب الفتاة ، وطوى سرواله أعلى . كان الكلب قد خلف خدوشا شديدة على ساقه تحت الركبة . ولما بللها في الماء أخذ الدم يسيل من جديد . انحنت جوليا عليه مذعورة ، وتأوهت وكأنها ترى جرحا بليغا .

---

* طفلة موهوبة – (بالألمانية) – **المترجم** .

– آه ، ايفان ، ايفان ! يوجع كـثير ! يا مادونا ! من اين وجع هذا ؟

قال ايفان ضاحكا :

– انه الكلب . خمشني حين كنت اخنقه .

– سانتا مادونا ! الكلب !

بدأت تتلمس ساقه باصابع خفيفة بارعة ، وتمسح بقع الدم الطرية واليابسة . انطرح على مرفقيه ، شاعرا برقة لمساتها ، وطاب نفسا واطمأن . كان الجرح ينزف بالفعل ، وطرفاه قد انفتحا . والساق تحتاج الى تضميد . رغم أن الألم لم يكن شديدا جدا . وقفت جوليا على ركبتيها ، وأمرته :

– عاين على الجبال .

وفهم أن عليه أن يدير رأسه ، ونفذ طلبها طائعا . وفجأة سمعها تمزق شيئا من ثيابها ، وحين التفت نحوها ثانية رآها تمسك بقطعة قماش بيضاء نظيفة . وقالت وهي تتهيأ لبدء التضميد :

– دوا ، نحتاج دوا .

– من اين الدواء ؟ سيندمل كما يندمل جرح على كلب .

– لا ، وجع مثل هذا صعب كثير .

– لا تقولي : وجع ، هذا بالروسي جرح .

– جرح ، جرح ، هذا جرح صعب .

التفت فرأى على مسافة غير بعيد سيقان

عشب رمادية مثل اعشاب آذان الجدي ، فاقتطع منها بعض الاوراق الصغيرة .

– هذا هو الدواء . امى كانت تعالجني به دائما .

– هذا ؟ هذا بلانتاغومايور لا دوا – قالت ذلك وتناولت الاوراق من يده . فاستعادها منها على الفور .

– ما هذا الكلام ! هذا اذن الجدي ، ألا تعرفين كيف يدمل الجروح ؟

– لا اذن الجدي . هذا بلانتاغومايور ، باللاتيني .

– باللاتيني . وهل تعرفين اللاتينية ؟

حركت جوليا حاجبيها :

– أنا يعرف لاتيني كثير كثير . ودرست النبات .

وهو ايضا كان يعرف النبات في وقت ما ، ولكنه لم يعد يتذكر شيئا منه . انه الآن اكثر ما يعتمد على العرف الشعبي . وضع الاوراق على الجرح المنتفخ . هزت الفتاة رأسها محتجة ، ومع ذلك أخذت تلف الساق . ولاول مرة شعر ايفان بتفوقها عليه . ليس من شك في أن تحصيلها الدراسي أعلى بكثير من تحصيله ، مما استدعى احترامه لها . ولكن الجرح لم يقلق ايفان كثيرا ، بل الذي اثار اهتمامه اكثر هو تلك الزهور التي لم يكن يعرف اسماءها . مد ذراعه في ناحية ،

وقطع سويقا يشبه اقحوان المروج الاعتيادي ، وقال :

— وهذا ما اسمه ؟

القت نظرة سريعة على الزهرة ، وهي مسرعة في تضميد الساق بالقماشة ، وقالت :

— بيرترويم روزيوم .

— يختلف عن تسميتنا تماما . هذا عندنا اقحوان .

واختطف زهرة اخرى زرقاء صغيرة ، تشبه القنطريون العنبري الذابل :

— وهذه ؟

— هذه ؟ هذه بريمولا اوريكولاتا .

— وهذه ؟

— غينتينا بيرينيكا — قالت وقد تناولت من يده نجيمتين زرقاوين صغيرتين على سويق صلب .

— أنت تعرفين كل شيء . شاطرة . ولكن باللاتيني فقط ...

وخلال ذلك كانت جوليا قد ضمدت الساق على نحو ما ، وقد طلعت بقعة بنية على سطح الضمادة . اوعزت اليه :

— لازم ترقد ، لازم هدوء .

خضع لرعايتها بتلطف فاتر ، ومد رجله ، ورقد على جنبه ، ووجهه نحو الفتاة . وطوت جوليا ركبتيها تحتها ، ووضعت يدها على ساقه

الحامية من الشمس . وقالت ، وهي تمسد الساق برفق :

– روسو لطيف ، لطيف .

– تقولين لطيف ، ولكن لا تثقين بي ، وتتصورينني من اتباع فلاسوف . – قال ايفان ذلك بعتاب ، وقد تذكر زعلها قبل حين .

فتنهدت جوليا ، وقالت بترو :

– انت لا فلوسوف . أنا يثق بايفان . ايفان يعرف الصحيح . وجوليا لا يعرف الصحيح .

تفرس ايفان بعينيها الصارمتين المكتئبتين.

– ماذا افترى لك ذلك الفلاسوفي ؟ اين سمعته ؟

اجابت جوليا بسرعة :

–في المعسكر . واحد فلاسوف قال . كولخوز جوعان ، كولخوز سيىء .

ضحك ايفان بسخرية .

– هو نفسه منحط . يبدو أنه من بقايا الكولاك . لم يكن الكل ، بالطبع ، على مستوى واحد من المعيشة ، ولم نكن في جنة . والحقيقة انني لم أرد أن احدثك عن كل شيء . ولكن ...

فألحت جوليا تسأله :

– تكلم ، ايفان ، تكلم الصحيح !

أقتطع اقحوانة قرب يديه ، وارسل زفرة .

– طيب ، كانت هناك سنوات قلة في المحاصيل . صحيح أن الكولخوزات لم تكن

متساوية . والتربة ايضا تختلف من مكان الى أخر . ارضنا مثلا حجارة في حجارة . وتوجد مستنقعات ايضا . وبالطبع لكل دوره ، وكان من الممكن أن ننصرف الى الارض ايضا ، وقد جففنا الكثير من المستنقعات ، وظهرت التراكتورات في الريف ، ومختلف المكائن . وفي ذلك مساعدة غير قليلة للفلاح . وبدأنا العمل في الكولخوز بوئام . الا أن الحرب اعاقتنا .

دنت جوليا منه اكثر .

– تكلم عن سيبيريا ايضا . تصورت أنك تهزل .

– لا ، ابدا . وسيبيريا ايضا حقيقة . نفوا اليها الكولاك الذين اغتنوا ، مثل ما يسمون عندكم بـ «الباوريين» ، أخذوا مختلف الاعداء . كان عندنا في تيريشكا ايضا اربعة منهم .

– اعداء ؟ ولماذا اعداء ؟

– ناصروا البرجوازيين . كانوا يريدون نشر مرض الرعام بين ابقار الكولخوزات .

– اوي ، اوي ! غير لطيف !

– بالضبط . من المحتمل ألا يكونوا جميعا كذلك . ولكن كل واحد منهم حكم بعشر سنين ، حكما لايناسب الذنب مطلقا ، وارسلوا الى سيبيريا أيضا . للاصلاح .

– صحيح ؟

– بالطبع . فماذا كنت تظنين .

كان يقطع زهور الاقحوان بانهماك ، مستلقيا على جنبه . وسألت جوليا بعد صمت قصير :

– انت يحب بلادك كثير ؟ بيلوروسيا ؟ سيبيريا ؟ أهلك الطيبين ؟

– ومن غيرهم احب ؟ صحيح أن الناس عندنا ايضا مختلفون فيهم الطيبون وفيهم السيئون. ولكن الطيبين اكثر، كما يبدو لي. عندما مات أبي كفت البقرة عن ادرار الحليب ، وكان الوقت صعبا . كنا نتغدى على البطاطس فقط . فكانت هذه المرأة من نساء قريتنا تأتي لنا بشيء ، والأخرى بشيء آخر . وجارنا ابوناس جلب لنا الحطب للشتاء . حتى كبرت . كان الناس يشفقون على الارملة أمي . ناس طيبون حقا ، ولكن كان هناك اوغاد ايضا . هناك من وشوا على معلمنا اناتولي يفغينفيتش ، فأعتقل ، وهو الرجل الشريف . كان ذكيا وطيبا . كان يتعارك مع رئيس الكولخوز باستمرار على التجاوزات . كان في صف الناس البسطاء . ولكن ابن كلبة أبلغ المسؤولين زورا بأنه معاد للسلطة . فحكم عليه ايضا بعشر سنين . خطأ ، بالطبع .

– ولماذا لا يدافع عن معلم شريف ؟

– دافعوا . أهل القرية كلها كتبوا ، ولكن ...

ولم يكمل ايفان . فقد أثارت في نفسه هذه الذكريات المتدفقة لا اراديا هواجس غير سارة ،

فبقي راقدا يقضم باسنانه سويق اقحوان مقطوعا. مسدت جوليا على ركبته الحارة المضمدة برقة ، وقد بدا عليها الغم والاهتمام .

– كل شيء حصل . حطمنا القديم ، وسرنا في طريق التغيير ، ولم يكن ذلك سهلا . بل بالدم . ومع ذلك فليس هناك اعز من الوطن . والمصاعب تنسى دائما ، ولا يعلق في الذاكرة الا الجميل ، على الاكثر . حتى السماء تبدو هناك شيئا آخر ، اكثر حنانا ، والعشب أنعم ، وان كان بغير هذه الباقات . ورائحة الأرض أعذب ايضا . أظن لو أن كل شيء عاد كما كان لتغلبنا على مصاعبنا على نحو ما ، وصرنا اقرب الى العدالة . المهم بلا حرب .

قالت جوليا بحرارة :

– الروسو ظاهرة ، مفارقة ، اعجوبة .

لفظ ايفان السويق من فمه ، وقاطعها :

– العجيب هنا هو الكفاح . كنا نعيش محاطين بالبرجوازية ، وعززنا الجيش .

وافقته جوليا بحماس :

– أوه ، جيش روسي ينتصر !

– ها انت ترين . روسيا قوة ! فاذا وجهت هذه القوة الى الاعمار بعد الحرب ، فسترين !..

– أنا سمع كثير ، روسيا ، روسيا اكبر قوة – وصمتت جوليا ، وكأنها تذكرت شيئا ، وابتسمت ابتسامة حزينة – انا هرب من والدي

على تفكير هذا . والدي احتفل بيوبيل الشركة في روما . وكان عندنا ضيوف كثير ، كان واحد ضابط نازي ، كان في روسيا قال روسيا رديئة، فقيرة ، لا حضارة . فقلت له : هذا غش . روسيا أحسن من ألمانيا . الضابط سأل : انت شيوعية؟ أنا قلت : لا ، لا شيوعية . ولكن اقول الصحيح . والدي ضربني هكذا - ومست خدها - بالروسي صفعة . هربت من الحفلة . هربت الى ماريو الى نابولي . ماريو شيوعي . أنا دائماً افكر روسيا بلاد عظيمة . ايفان هرب من المعسكر ، جوليا هرب . ايفان الروسي بطل .

قال ايفان معترضا :

- اي بطل انا ! جندي ، لا اكثر .

- لا جندي بسيط . الجندي الروسي بطل! اجرأ اجرأ ، أذكى اذكى اكثر ... اكثر .

كانت تتكلم بحماس مختارة الكلمات الروسية التي تعرفها . وكل لهجتها تنطق بالايمان العميق في صحة الفكرة التي لم ترد التخلى عنها مهما يكن من شيء ، ومضت تقول :

- نحن رأينا بطلكم في المعسكر ، سمعنا بطلكم في الجبهة الشرقية . ونعتقد بلادكم الاقوى والأعدل ...

قال ايفان :

- أجل انها الاكثر عدالة . لقد تعلمت سياقة التراكتورات ، وبالمجان ... وبعد ذلك

دخلت مدرسة فنية متوسطة . المكننة . وما
اكثر الذين صاروا معلمين. من اولئك الفلاحين...
تحرك حاجبا جوليا المقطبان حتى الآن ،
والتمعت ايماضات ابتسامة في عينيها لأول مرة
بعد زعلها .

– مدهش !.. جوليا يحب الروسي .
الروسي لا صحيح ، ومختلف . وجوليا يحب
دائما اللاصحيح المختلف . ايفان مختلف . غير
مفهوم . روسي شيوعي ايفان أنقذ بلاده ، أنقذ
برجوازية ملكية ايطاليانو أنقذ جوليا .

– اولا أنا لست شيوعيا . لم أصل الى
ذلك . وثانيا لا داعي للاستغراب . الاتحاد
السوفيتي كله ينقذ ايطاليا وفرنسا ، وألمانيا...
واكثر ، وان كانت برجوازية . فمن كان سيوقف
هتلر لو لانا ؟

– سي ، سي . كذا ...

مسدت ساقه ثم جنبه العاري وعلى شفتيها
ابتسامة غامضة . انكمش ايفان مرتبكا ، يخامره
احساس غير مألوف ، حين كانت يداها الرقيقتان
تمسانه ، واذا بها تنحنى وتمس بشفتيها الندبة
الزرقاء التي خلفتها الحربة على جنبه . ارتعد
وكأنما طعن للمرة الثانية في نفس الموضع ،
وطرح ذراعه ليحتمي من ملاطفتها المفاجئة ،
ولكنها امسكت يده ، وضغطتها على الأرض ،
وأخذت تقبل باندفاعة لاتكبح ندبة خلفتها شظية

في كتفه ، وأخرى من أثر رصاصة أعلى من المرفق ، ومن حربة في الجنب ، ونزلت الى الاسفل ، وقبلت الضمادة بحذر . جمد ايفان مصعوقا بسورتها هذه ، وسرت في قلبه موجة من الرقة ، بينما مضت جوليا في تقبيلها له . وعند ذلك بدا الحد بينهما من الضيق بحيث لم يعد التوازن عليه ممكنا. ودون أن يعرف ما اذا كان تصرفه حسنا أو سيئا كان قد وقع تحت سيطرة قوة غير مرئية طغت عليه بأمواجها ، فارتعد ، ورفع جسمه على كوعه ، وطوق بالذراع الأخرى كتفها ، وضغطها ضغطا خفيفا ، واغمض عينيه ، ومس شفتيها اللدنتين المدهشتين بحرارتهما .

وبعد ذلك ألقى ظهره على العشب رأسا ، وطرح ذراعيه ، وراح يضحك ، غير عازم على فتح عينيه المغمضتين . الا أنه حين فتحهما رأى في الهالة المشمسة لشعرها المنشور وجهها المنحني عليه ، وفمها المفتوح الى النصف ، المشرق باسنانه البيض . وفي اللحظة الاولى بدا وكأنها شهقت ، والظاهر أنها كانت تريد أن تقول شيئا ولكنها عجزت عن قوله ، فاكتفت بان فتحت عينيها على سعة ، فتبدت فيهما دهشة وفرحة وسعادة غامرة . وسقطت على صدره ، وطوقته بذراعيها ، وراحت تهمس في وجهه بحرارة ووله :

— ايفانو !.. اميكو !..

قهر ما كان يفصل بينهما دائما ، وان لم ينطق به اللسان ، ولم يصل الى المقام الأول ، وقد حدث ذلك فجأة تقريبا ، وبشعور من السعادة . وتراجعت الى زاوية خلفية الاسئلة الموجعة التي كانت تقلق جوليا وتبعدها كما يبدو ، عن الشيء الاساسي . ومنذ تلك اللحظة لم يبق لهما كليهما غير عبق الارض العذب ، وخدر خشخاش المرج ، والألق القائظ للسماء الصافية العالية . لقد ولدت بين العذرية الغافية للجبال ، وعلى بعد خطوة من الموت ، عاطفة بكر غامضة وآسرة ، واشاعت الحياة والظمأ والرهبة والحنين .

ظل ايفان في رقدته على العشب يمسد ظهر جوليا الضيق المفخور بالشمس ، بينما كانت هي وقد سقطت على صدره ، تحك بخدها الحار كتفه المشقوق بشظية ، وشفتاها لاتفتآن تهمسان بشيء غير مفهوم ، ولكن ايفان كان يفهم كل شيء . وبدا وهو يضحك بسعادة كأنما همد في انعدام الوزن ، والسماء من فوقه قد سكرت ودارت ، والارض تترنح من جانب الى آخر كصحن هائل مائل ، موشكة على الانكفاء ، وكان ذلك لذيذا فيه رهبة وانتشاء .

لقد خيل اليه أن الزمن قد توقف ، والخطر

تلاشى . كانت عينا جوليا السوداوان الكبيرتان تشعان بحرارة قرب وجهه تماما . وقد اختفى منهما انشغال البال ، والعذاب ، والعبث ، ولم يبق غير النداء الآسر في صمته ، وكان ايفان يشعر بمايشبه ذلك عند حافة الهاوية التي كانت تخيفه دائما وتجذبه في نفس الوقت . ولم تكن له القوة ليقاوم هذا النداء كما لم يكن يعرف هل هناك حاجة الى ضبط النفس . ومرة اخرى لثم بشفتيه فمها الندي ، شفتيها الممتلئتين ، وجذبها بكلتا ذراعيه وجمد . وخيم هدوء شامل ، وفي هذا السكون كان السيل الجبلي ينصب ويترقرق مهيبا ، وكأنما يربط بدء الخليقة بالازل . فكانت نفس ايفان تتوق الى الذوبان والتلاشي في احضانها الراعشة هذه ، والانجراف مع التيار الى الازل ، والتشبع بقوة الارض ، والتحول الى قوة ارضية سخية هادئة حنون ...

ظلت الارض تترنح ، والسماء تدور ، ومن خلال جفنيه نصف المطبقين رأى ايفان تدويرة خدها الناعمة المغطاة بزغب ذهبته الشمس . وشعت أذنها الرهيفة المضاءة من الخلف بلون وردي ساخن . ووجد نفسه ينحني لا اراديا الى شحمة الاذن الصغيرة بحفرة القرط التي لا تكاد تبين ، ويمرر عليها شفتيه برقة . اهتزت جوليا بليونة ، وزعقت . فترك أذنها ، وشعر تحت دفتيه يديها السريعتين النحيلتين .

والظاهر أن صيحتها الشاكية أثارته ، فتردد في داخله بذهول صوت غريب غير مألوف له ، أخذ يتردد ويحتج ويتخوف من شيء . ولكن ايفان حاول أن يتجاهله ، ويكبح في نفسه هذا الاحتجاج ، فهو الآن لا يريد أن يعرف شيئا . فقد كان يحس في وعيه بهدير جدول جبلي وخريره ، وبالارض تدوي بكل اعماقها ، فترجع النفس صداها زمزمة ملحاحة قاهرة كجوقة من الابواق ...

والارض قد اترعته بعصاراتها العريقة ، ملأت بدنه بقوة لا تحد . طوق الفتاة بحرص ، وحلت الارض محل السماء . والآن لم تبق اية أهمية لاي شيء ، فقد كانت الفتاة بين ذراعيه ، الفتاة الملغزة المجهولة الغارقة في ألق الخشخاش الوهاج ، المستكنة ، الصغيرة ، الموهونة والمهيمنة في الوقت ذاته على الارض ، على نفسها ، على نفسه .

وعلى مسافة قريبة تماما تحتهما ، كان يهدر سيل عارم ، يبدو وكأنه صادر من اعماق الارض ، ويندفع مدمدما مناديا داعيا الى آماده غير المرئية . وجوليا منكمشة بين ذراعي ايفان ، وعلى شفتيها المنفرجتين كانت الكلمات تولد وتموت ، كلمات بلغتها وبغير لغتها ، ولكنها مفهومة لايفان .

ولكن ما أهمية الكلمات الآن !

وقد هدأت كل بطون الأرض والجبال والاناشيد الجبارة للتيارات الباطنية كلها ، هدأت في وئام ، ولم تترك في العالم غيرهما .

- ٢١ -

استيقظ مرتعبا يفكر في انه غفا وأذن باختفاء شيء مفرح وكبير بشكل غير اعتيادي . رفع رأسه ، ورأى جوليا على الفور ، وأبتسم لأن ارتعابه بدا بلا أساس ، فان شيئا لم يختف ، ولم يضع ، بل ولم يكن يحلم ، كما تصور في البداية .

ولاول مرة منذ سنين عديدة كانت اليقظة أهنأ من أبهج حلم .

كانت جوليا منبطحة على وجهها ، نائمة وقد ألقت رأسها على ذراعها المطروحة على العشب . الا أن انفاسها لم تكن منتظمة كما هي لدى النائمين ، فقد كانت تجمد أحيانا ، وكأنما تصغي الى شيء ما ، وتتقطع انفاسها متنهدة في نومها .

كانت شفتاها المفتوحتين الى النصف تتحركان كاشفتين عن أطراف أسنانها الندية . في البداية تصور أنها تهمس بشيء ، ولكن بلا كلمات ، والظاهر أن شفتيها كانتا تعكسان مسار أحلامها ، وكانتا تختلجان قليلا مثل خديها وحاجبيها . كانت خلجات النوم هذه كلها مترعة

بالرقة ، وتبشرها ، على الارجح ، بشيء جميل ، وبين الحين والآخر كانت تطل عن شفتيها ابتسامة هادئة سمحة .

وقضيا وقتا طويلا في هذا الحقل . كانت الشمس تنحدر من قبة السماء ، وتختفى وراء اسنان الجبال الآخذة بالعتمة . وبدا المرج الذي كان يتألق مهيبا في النهار بائسا لا تكاد النفس ترتاح اليه ، وهو غارق في ظلام متكاثف . كان المدى البعيد ملفعا بضباب كثيف ، والجبال اليمامية البعيدة تتبرقع بدخان أبيض كان يغرق الوادي برمته . جبل الدب فقد سفحه الغابي ، وساح في بحر من الضباب الرمادي ، وكأنما قد ذاب فيه . والقمم العليا وحدها كانت تلمع ساطعة عاكسة الشمس المختفية عن الانظار . وكان ذلك هو النور الوداعي الأخير لنهار غير اعتيادي وغير متوقع مثل منحة . وفي البعيد طلعت نجمة وحيدة حزينة في القوس السمائي الشاحب ، وراحت ترسل ضوءا خافتا .

التفت ايفان الى جوليا ثانية . كان عليهما أن ينهضا ويستأنفا السير ، ولكنها كانت في نوم لذيذ عزلاء ، عاجزة حتى أن ايفان لم يجرؤ على قطع نومتها . أخذ يمعن نظره النهم في وجهها الذي كان يتحرك اثناء النوم ، يتمعن فيه وكأنما يراه لاول مرة . فبعد الحدث الذي حدث بينهما اكتسب كل بسمة فيه ، كل تقطيبته معنى

خاصا . فكان يريد اطالة النظر اليها متفرسا فيها ، محاولا أن ينفذ الى سر نفس انسانية عزيزة عليه وقد اكتشف فيها شيئا غير متوقع — نقيا وبهيجا — حتى بدا وكأنه سيشرق بهذه النشوة الاولى في حياته . صحيح أن النشوة قد خفت الآن قليلا ، الا أن الاحساس بالسعادة قوي ، فراح يحدق بلاحراك ، وفي وحدة تامة ، يحدق فيها كما يحدق في سر لا يدرك كنهه ، يحدق في هذه الاعجوبة الصغيرة التي اكتشفها في الحياة بهذا الوقت المتأخر ، وبمثل هذه السعادة .

بينما مضت هي في نومها منضغطة بجسمها على صدر الارض العريض . كان منخراها الرقيقان يتحركان بطيئين ، ودعسوقة صغيرة تدب على ردنها ساهية ، حتى اذا صعدت من الطية المخططة الى بروز الكتف بسطت جناحيها لتطير ، ولكنها لم تطر ، واستمرت في دبيبها . ألقى ايفان الحشرة بحذر ، وعدل شريط الصليب على عنق الفتاة بلمسة محترسة . ولم تستيقظ الفتاة ، سوى أن أنفاسها تخلخلت قليلا ، عند ذاك جذب على ظهرها حافة السترة المثنية وابتسم . من كان في وسعه أن يتصور أنها ستصير خلال يومين ، كل شيء بالنسبة له ، وتأسر قلبه في وقت لم يكن يبدو مناسبا له ؟ فهل كان في امكانه أن يتنبأ بأنه سيلتقي حبه

الأول بهذا الشكل المفاجىء ، اثناء محاولة هروبه الرابعة ، متخلصا من الموت ؟ فما اكثر تشابك الاشياء واختلاطها في هذه الدنيا ! الا أنه لا يعرف فقط من الذي خلطها : الناس أم الشيطان، والا فكيف امكن ان يحصل مثل هذا في الاسر ، على بعد خطوتين من الموت ، مع فتاة غريبة لا يعرفها ، ظهرت من عالم آخر تماما ، صارت بتلك الفجاءة أعز وأهم من كل الذين التقاهم يوما ما في طريقه .

ومع كل ذلك يجب أن يستأنفا السير . وفكر ايفان : «لا وقت للاسترخاء ، حان الوقت لايقاظ جوليا» ، الا أنه وجد نفسه ينطرح قربها من جانب ، وبحذر حتى لا يقطع نومتها . وامتلأ حنانا نحو الفتاة ، فازاح عن رأسها سيقان خشخاش كانت تتدلى واطئة ، وهش فراشة بيضاء رفرافة كانت تنوي أن تحط على شعرها . وفكر ايفان ، وهو يجلس على العشب بوضع أروح : «لاتركها تنام قليلا ، فترة قليلة أخرى ، وبعدها يجب ان اوقظها . لنسير منحدرين نحو الوادي ، الى الاسفل ...»

كان جبل الدب العريض يتوقد بخفوت في آخر لحظات توقده ، فوق كتلة الجبال المضببة في السماء المسائية الهادئة . وكان جناح الليل اليمامي يزحف مصعدا على منحدراته أعلى فأعلى ، والالق الوردي على مسننات القمم

يتضاءل اكثر فأكثر . وسرعان ما انطفأت تماما ، وغرق الجبل وانضوى . ولفت الجبال ظلمات رمادية ، وفي السماء التي مازالت منورة بزغت النجوم الاولى . ولكن ايفان لم يرها بعد ، فقد غفا على آخر فكرة : يجب أن ننهض .

وجوليا هي التي ايقظته . من المحتمل أنها تقلبت من البرد ، والتصقت به اكثر ، وشعر ظهر ايفان ، بذلك رأسا ، فأستيقظ . طوقته بذراعها ، وهمست بكلمات حارة اجنبية غريبة ، ولكنها الآن مفهومة له ، طوقها ، وانطبقت شفافهما من جديد ...

كان الظلام قد انسدل تماما ، وبرد الجو . وكانت الجبال القريبة تطل حدبات سوداء في السماء ، والنجوم القليلة تتألق ساطعة في الاعلى ، وقد سكنت الريح تماما ، حتى أن سيقان الخشخاش لم تعد تهتز ، سوى أن السيل في انحداره على مقربة منهما ظل يهدر على ايقاع واحد بلا انقطاع . وكانت أعشاب المرج كلها تفوح فوحا شديدا في الليل ، حتى أن عبقها كان يسري نشوة في الدم . وكانت الارض والجبال والسماء تهوم في الظلام ، فرفع ايفان جسمه ، وانحنى على الفتاة وحدق طويلا في وجهها الذي كان وجها آخر الآن ، ليس كما هو في النهار ، مبهما كالليل ، يبدو عليه شيء من الحذر والتوجس . وفي عينيها الواسعتين كانت

تتوامض حدقتاها الداكنتان ، وفي اعماقهما تلمع بضع نجيمات . وعلى وجهها تجول أطياف ليلية غامضة ، ويداها حتى في الليل لم تفقدا رقتها الراعشة ، وقد ظلتا تمسدان وتداعبان كتفيه ورقبته وقفاه .

ناداها بخفوت ضاغطا اياها على جسده :

– جوليا !

ردت طائعة في خفوت ورقة وتدله :

– ايفانو !

– ألست غاضبة علي ؟

– لا ، ايفانو .

– واذا اتركك ؟

–لا ، اميكا . ايفان لا يترك . ايفان روسو . والروس لطاف رقاق .

وضغطته عليها في عجالة وليونة وبقوة غير منتظرة منها ، وضحكت ضحكة خافتة .

– ايفان ماريتو ! لا سينيور زانغاريني ، لا ماريو ، ايفان الروسي ماريتو .

وسأل بارتياح ، بل وحتى بسرور مضمر في نفسه :

– وانت مسرورة ؟ ألا تأسفين على أن ايفان ماريتو ؟

رفعت أهدابها الرائشة المظللة برأسه المحني عليها ، وأهتزت النجيمات في حدقتيها ، وتواثبت .

– ايفان ، ماريتو طيب طيب . سيكون لنا فيليو صغير صغير ... كيف تقوله بالروسي ؟

– طفل ؟

– لا طفل . كيف روسي صغير ؟

فحدس مستغربا قليلا :

– ها ، ولد .

– نعم ، ولد ! هذا لطيف . صغير صغير ، ولد لطيف . سيكون اسمه ايفان ، ها ؟

– ايفان ؟ وايفان ممكن ايضا – وافقها ، وألقى من فوقها نظرة الى كتلة الجبال السوداء ، وتنهد .

هدأت مفكرة في شيء ما . صمت كلاهما لحظة . وكل واحد غارق في افكاره . وحولهما جبال ساكنة ، ونجوم شحيحة اللمعان ، مرج خشخاش مغطى بنقاب حالك لا ينفذ . وكان الهدوء عميما لا يسمع فيه الا السيل يرسل خريره الموزون ، ولكنه لايخل بالسكون ، فكان يبدو لايفان أن العالم ليس فيه غير ثلاثتهم : هما والسيل . طردت كلماتها الأخيرة البسمة عن وجهه بالتدريج ، واختفت الخفة المازحة ، وجابه في داخله شيئا صعبا جديا ، بعد أن اكتشف تعقيدا آخر في علائقهما غير البسيطة أصلا . بينما كانت جوليا على العكس منه ، تهتز فرحا ، بعد أن استوعبت شيئا في ذهنها ، وتنكمش في احضانه .

– ايفانو ! ايفانو ! لطيف ! ما ألطف هذا : فيليو ! ولد . ولد صغير !

ثم فكت يديها ، وقلبت وجهها الى الاسفل ، واختفت النجيمات عي حدقتيها ، وصار وجهها بقعة فاتحة شاحبة ، لاتكاد تومض فيه عينان مظللتان بظلال عميقة . وفجأة خلت رهبة محل تلهفها القصير .

– ايفانو ، أين سنعيش ؟ – وفكرت قليلا– روما لا . أبي في روما أوف بيوزه ! تريسته ؟

قال ايفان :

– لا حاجة الى تخمين المستقبل !..

– أوه – هتفت فجأة خافتة الصوت –جوليا يعرف . سنعيش في بيلوروسيا . قرية تيريشكي . قرب اثنين بحيرة .. تمام ؟

– ربما ، قد ...

وفجأة تذكرت شيئا ، وظهر عليها التوجس :

– تيريشكي كولخوز ؟

– نعم ، ياجوليا . ثم ماذا ؟

– ايفانو . كولخوز غير لطيف .

– ما هذا منك ! لقد قلت لك ... جيد . سوى أن الحرب اعاقتنا .

وغرز اصابعه الخمس الكبيرة في شعرها الخشن الكثيف وشعثه ، فانحنت ، واطلقت رأسها من اصابعه ، ومسدته .

– جوليا عندها ينمو شعر لطيف كثير. الشعر الكثير جميل، ها ؟
وافقها :
– نعم، جميل.
صمتت قليلا، ثم عادت الى حديثها السابق وقالت :
– ايفان سيشتغل في مزرعة. وسيكون لجوليا. كيف تسمى ؟ فيللا. وسنزرع كثير كثير خشخاش. مثل هذا المرج.
– نعم، نعم.
وافقها ايفان ساهم الفكر. كانت رجله توجعه كثيراً، وكانت بحاجة الى تعديل الضمادة عليها، ولكن ايفان لم يرد أن يزعج الفتاة زيادة. فاكتفى بأن مد رجله، على العشب، وحررها اكثر، وهو يستمع شارد الذهن الى جوليا التي كانت ماضية في حديثها بالقرب منه.
– سنكون سعيدين كثير كثير. انا يحب سعادة كثير. لازم الانسان سعيد، صحيح، يا ايفانو ؟
– نعم، نعم...
ولعل جوليا استغرقت في حلم، فقد كان صوتها يزداد خفوتا، وافكارها تتشربك، وسرعان ما صمتت. مسد كتفها بنعومة، وراح يفكر : ينبغي أن اتركها تستريح، وتشبع نوما، وعلى كل حال كم تبقى من هذه الليلة

الأولى ، وربما ، الأخيرة لسعادتهما . وفي الغد عليهما أن يستأنفا السير . ولكن من يدري ماذا اعد لهما الغد هذا ؟

ظل يحدق في السماء طويلا ، وحده مع الكون ، مع مئات النجوم الكبيرة والتي لاتكاد ترى ، مع درب المجرة الفضي يخترق السماء كلها ، والقلق المفزع يتزايد الحاحا في نفسه .

خلال سنوات الحرب نسي تماما الحاجة الانسانية الى السعادة . كان ينفق كل قواه ليظل حيا على نحوما ، ويتقي الهلاك . وبالطبع سيأتي زمن ، يقضى فيه على الفاشية ، ويتمتع الناس بفرح الأخوة العظيم ، بالحب الحر بدون حدود ولا قيود ، ولكن من المستبعد أن يكتب له ولجوليا العيش ليشهدا ذلك . ان هذه الفتاة الحلوة الرقيقة تحلق في الاحلام عاليا ، فلا تتصور كليا ما يخبىء لهما الطريق الى تريسته . انها بعد أن افلتت من معسكر الاعتقال ، وذاقت الحب في عالم الزهور المدهش هذا أجمعت أمرها على أنها تخطت كل ما يثير الفزع . أه ، ليت الأمر كذلك ! ولكن ما هو الا شيء من التفكير ، ويتضح كم من المخاطر ماتزال في الامام : طرق سيارات حافلة في الوادي ، وانهار جبلية صاخبة ، ومناطق مأهولة . ثم المخافر ، والكلاب ... وبالاضافة الى هذا كله السلسلة الجبلية الهائلة الثلجية المنيعة ! كيف يمكن أن يجتازاها ، وهما

الجائعان غير المهيئين لها فيما يلبسانه ويحتذيانه ؟

ان ما كان في انتظارهما في الأيام القليلة المقبلة كفيل وحده بأن يجعل اي شخص في مكانهما يفكر ويغرق في التفكير . وبعد ذلك ؟ ماذا في انتظارهما بعد ذلك ، في حالة اجتيازهما لكل هذه المصاعب . ان ايفان لا يجد الرغبة حتى في التفكير في ذلك . لا ، لم يكن الوقت مناسبا قطعا لأن يلتقيا في هذا الدرب ، ويتحابا .

ولكن لماذا ؟ لماذا لا يقدر الانسان أن يمتلك أملا صغيرا في السعادة ، التي يولد من أجلها في هذا العالم ، ويسعى اليها طوال حياته ؟ ولماذا لا يجوز لها بالفعل أن تأتي الى قريته الهادئة تيريشكا ببحيرتيها ، اذا كانت الفتاة تريد ذلك ، واذا كان هو يحبها ، كما لم يقدر على حب اي فتاة أخرى غيرها في الدنيا ؟ وهي أيضا – وكان يدرك ذلك بوضوح – ستكون أحسن زوجة في الدنيا .

ما أروع لو يأتي بهذه الفتاة الضحوك السوداء العينين الى قريته ! أيعقل ألا يحبها أهل القرية وألا تصير هي مدينة اليهم ؟ ماذا لو كونوا قليلي التعليم ، ولربما ، غير متحضرين كثيراً ، ولكنهم انقياء القلوب ، طيبون ، اصحاب

نخوة في الضراء ، اسخياء في السراء . فماذا يحول دون حبها لهم ؟

لم يكن في مقدوره أن يتصور فراقه لها . سيظل معها مادام حيا ، وليكن ما يكون ، حتى ولو جابه الموت . انه لم يكن يهاب الموت ، وكان قادرا على أن ينافح عن نفسه ، ولاسيما الآن ، حين كان عليه أن ينافح عن حياتهما معا . فليحاولوا أن ينتزعوها منه ! أما هي فقد كانت تنام على جنبها وادعة ، وقد ألصقت ركبتيها على بطنها . نهض ايفان ، وأجال بصره فيما حوله ، وجلس ثانية الى جانبها جهما حانقا ، ربما لأنه كان يشعر بجوع شديد ، ولأن رجله كانت توجعه ، وهذا هو الاهم . يبدو أن الساق قد تورمت . فقد كانت الضمادة تضغط بقوة . ارخاها ايفان قليلا ، وتلمس . كانت الرجل تلتهب حرارة ، وأخذت الرجفة تعتريه . اضطر الى أن يتناول السترة المخططة الكريهة من العشب ، ويلتف بها ، ولكن حتى هي لم تكن تبعث الا القليل من الدفء . بعد دقيقة فكر ايفان ، وهو يصغي الى هواجسه : «لم يبق الا أن أمرض . فماذا سيحصل عندها ؟ لا ، لا يمكن ! — فكر مشجعا نفسه — سأتماسك ! سأتماسك مهما يكن من شيء !»

ولكن شيئا قد تغير في داخله . وقد شعر به . وظل القلق ينضح في واعيته بتزايد ، مثلما

ينضح الماء في قارب مثقوب . لطيف أن جوليا لم تكن ترتاب في شيء ، وتنام في الخشخاش هانئة . وجلس هو ايضا قربها ، وحشر قدميه الحافيتين تحت طرف السترة الجلدية التي كانت تغطيها . وأخذ يتمعن في الظلام . وبعد قليل بدأ النعاس يداعب أجفانه ، والتعب يغلبه . ولكن جوليا كانت تنام قربه مستسلمة ، وكان عليه أن يجلس كما هو يحرس نومتها .

الا أنه لم يعد يقاوم عند الفجر . وغفا دون أن يدري ، وقد دفن وجهه في ركبتيه .

— ٢٢ —

والفزع الذي كان قد خمد ، وايفان في سبيله الى النوم ، لطم قلبه فجأة . فاستيقظ ، وفي تلك اللحظة سمع صيحة قريبة غير مفهومة :

— فو بيست دو ، روسه ؟ زي غابن بروت! زي غابن فيله بروت * .

كانت الدنيا تتنور شيئا فشيئا ، ولو أن الشمس لم تطلع بعد ، والجو حوله رطب وغير مريح . ثمة سحابة كانت تزحف فوق المرج ، والجبال لاترى . وكانت غمائم الضباب

---

* أين أنت ، يا روسي ؟ انهم يقدمون الخبز ! عندهم خبز كثير (بالالمانية) .

الشعثاء تزحف ماضية على طول المنحدر متعلقة بسيقان الخشخاش الندية المتدلية. اختطف ايفان السترة الجلدية من رجلي جوليا، فهبت، وتمتمت بشيء مذعورة. أما هو فقد كان واقفا على ركبتيه يحدق بامعان في الجهة التي جاءت الصيحة منها. وسرعان ما حدس ايفان أن ذلك هو المجنون، ولكنه حزر فجأة أنه ليس لوحده، وأن معه آخرين. وبالفعل، ما كان يتبين شيئا في الضباب، حتى سمع صيحة مكبوتة خانقة بالالمانية:

— سكوت!

فهمت جوليا كل شيء، وارتمت على ايفان. وتشبثت في ردن سترته، وراحت تنتظر في نهم الى الاسفل، في الضباب الرمادي الذي كانت تتراءى فيه ظلال حية. الا أن ايفان امسكها من يدها، واندفع نحو الجدول محني القامة. وكانت يده الأخرى تحمل السترة الجلدية، وبقي القبقاب في الخشخاش.

ركضا بحذاء الجدول مصعدين الى فوق.

لم يطلق ايفان اصابع جوليا من يده، والفتاة في اثره لاتكاد تلحق به، وهي تتلفت ذاهلة. كان يحاول ايجاد مكان مناسب للعبور الى الجانب الآخر، فقد كان من الممكن الاختفاء هناك بين الصخور، ونباتات الـرودندرون الكثيفة. ولكن السيل كان يندفع من الجبال

عارماً ، وكان من المستحيل النزول في تياره السريع .

«لطيف أن هناك سحابة ! لطيف أن هناك سحابة !» كانت هذه الفكرة تدق في رأسه وتخفف عنه . كانت مزق الضباب السريعة ماتزال تحجبهما : «المجنون اللعين ، لماذا لم اقتله ؟ كلهم أوغاد ، من صنف واحد !» كان ايفان يفكر في يأس ، ويجر جوليا الى فوق دون هوادة . وكانا قد اجتازا عطفة السيل ، وصعدا الى الشاطىء العالي من تلك البقعة ، وبعده كان المكان مكشوفاً . كان السيل يندفع على الصخور بقوة رهيبة . وكان عليه ، كما يبدو ، أن يتخلى عن نيته في العبور الى الجانب الآخر . وقبل أن يطلع على فسحة المرج الندية سقط على ركبتيه لاهث الانفاس ، والتفت فرأى الضباب قد شف بشكل ملحوظ ، وصارت تتراءى الصخور البعيدة في الخشخاش ، وبقعة البروز الجرداء ، حيث كان ينتظر جوليا يوم أمس . وحتى هنا ، في الضباب، لاح بعض الهتلريين منتشرين على المرج في سلسلة غير عريضة ، يركضون نحو المكان الذي قضى فيه ايفان وجوليا ليلتهما .

نظر ايفان الى جوليا ، فرأى الذعر والتعب التام منعكسين على وجهها الناعس قليلا : «أتمنى لو تصمد ! اتمنى لو تصمد !» فكر متمنيا بحب . الاقدام وحدها الآن يمكن أن تفتح طريقا للنجاة ،

وبعد أن التقط انفاسه ، تناول يدها من جديد ، فأخذت تركض بجهد هائل ، ولكنها لم تتخلف عنه .

وطلعا على الجزء الاعلى من المرج ، وهما يلهثان ، وقد بلل الندى ارجلهما حتى الركب . ولكن ايفان كان مع كل لحظة يزداد عرجا على رجله اليمنى التي ثقلت بشكل غريب ، وكأنها لم تعد رجله ، حتى أنه تصور في بادىء الأمر أنه قد جلس عليها ، أثناء اغفاءته . ولكن فتورها الشديد لم يزل ، وشعر بألم شديد في العروق تحت ركبتيه ، وسرعان مالحظت جوليا عرجه ، فجذبته من يده مذعورة :

– ايفانو ، ريجلك ؟

جرجر رجله على العشب محاولا أن يطأ الأرض بحذر أشد ، ولكن رجله هذه لم تطاوعه كثيراً . عندئذ تلفتت جوليا ، واندفعت راكعة أمامه ، وتشبثت في سرواله محاولة أن تعاين الجرح .

– لازم يشمد ، ها ، أنا يشد قليل . ها ؟

رفع يديها بحركة قاطعة .

– لا حاجة لشيء . دعينا نسرع .

– يوجع ، ها ؟ يوجع ؟

راحت تسأل وفي عينيها الواسعتين فزع ، وهي تحدق فيه بحنان . وكان يحس بقلبه يخفق تحت السترة المخططة خفقانا جنونيا من التعب ،

وحاجباه الخشنان المرفوعان يختلجان عصبية .
– لابأس ، لابأس ...
وراح يقزل عجولا مغالباً الألم مواصلا سيره.
وانزلقت يد جوليا فالتة من أصابعه ، فلم يتناولها . تلفتت الفتاة لحظة ، وركضت وراءه .
– ايفانو، اميكو، سنعيش؟ قل، سنعيش؟
أخذت الفتاة تسأل باستماتة تمزق نياط القلب . نظر ايفان اليها غير عارف ماذا يجيب ، ولكنه رأى في نظرتها من اللهفة والأمل ماجعله يسرع لتطمينها :
– سنعيش ، بالطبع . فقط أن تسرعي .
– أنا يسرع ، ايفانو . أنا يسرع . أنا جيد ...
– جيد ، جيد ...
وبلغ في مشيه السريع الى الحافة العليا للمرج ، حيث كان يبدأ بين الصخور الدرب الذي سلكاه في مجيئهما الى هذه البقعة ليلا . ولعل في الامكان الاختفاء في الصخور . ولكن السحابة كانت قد انقشعت عن المرج ، وتنور اكثر ، والضباب راح يشف أمام العين ، وفي فرجاته تكشفت واضحة زهور الخشخاش الحمراء، والصخور ، وكانت هذه الفرجات تتسع متزايدة: «اللعنة ، معقول أننا لا نفلت ؟ معقول أنهم سيروننا ؟ لا ، لن يكون ذلك !» كان ايفان يهدىء نفسه ، ويصعد أعلى فأعلى . وكان ، وهو الذي

خاض بعض تجارب الهروب ، يفهم كل ما في الوضع من تعقيد ، ويعرف أن من المستبعد أن يفكهما الألمان اذا عثروا عليهما .

الا انهما لم يجدا الدرب ، فتسلقا المرتفع المعشوشب . ومن حسن الحظ أيضا انه لم يكن حاداً في ارتفاعه ، ولم يكن يعيقهما غير اعشاب الرودودندرون القصيرة التي ثقبت اقدامهما . والحقيقة أن دغلا كثيفاً من اشجار الصنوبر كان يبتدىء في نقطة أعلى بقليل ، وكان من الممكن الاختفاء فيه . ولم تكن جوليا تتخلف ، فكان قلقه على ذلك عبثا ، كانت تشق طريقها امامه قليلا حافية دامية القدمين ، وحين كانت تلتفت الى الوراء كان يرى على وجهها عزما على تخطي المحنة لم يلحظه عليها طوال طريق هروبهما من المعسكر . الآن تبدو وكأن لاشيء يعيقها ، لا الصخور ، ولا التعب ، ولا الأشواك ، ولا النتوءات الصخرية . كانت كالذئبة تنافح عن حياتها بضراوة .

— ايفانو ، عجل ، عجل ...

صارت تستعجله ! وكز ايفان على اسنانه ، حين لحظ ذلك ، يبدو أن أموره تتحول من سيىء الى أسوأ . رجله ظلت تزداد ثقلا ، وركبته تورمت . رفع سرواله الممزق خلسة ، وانزله في الحال . لقد صارت ركبته متخشبة ، متصلبة، مزرقة . «مصيبة ، معقول أنها تلوثت ؟»

وفي ذات الوقت ، مرت مزق السحابة الأخيرة ، وكأنما مغايظة ، وانكشفت كليا حوافي المرج المشبع بحمرة الخشخاش . واذا بشخوص الألمان الداكنة تظهر من الضباب كالحجارة ، واحداً ، ثم آخر ، ثم ثالثا . وساروا ، قرابة ثمانية أشخاص ، عبر المرج في تعب ، ساحقين الزهور ، مجيلين ابصارهم في صخور الجبال في حذر .

الآن لم يعد الاختفاء ضروريا ...

جلس ايفان ، بعد أن ألقى السترة الجلدية ، وتوقفت جوليا الى جانبه منقبضة الصدر مذهولة. ومن التعب بقيا بضع ثوان غير قادرين عن النطق بكلمة ، ينظران الى مطارديهما بصمت . أما هؤلاء فقد أخذوا يضجون ، ورفع أحدهم ذراعه ، وأشار اليهما وترامى صوت ايعاز قوي . كان في وسط السلسلة رجل في ثياب مخططة يجرجر نفسه ، ويداه مربوطتان وراء ظهره ، كما يبدو ، وحين توقف دفعه حارساه من ظهره . وعرف ايفان أن ذلك الرجل هو المجنون .

دبت الحيوية في الألمان رأسا ، واندفعوا الى فوق صارخين .

قال ايفان :

— وليكن . ولكن لاتخافي . لاتخافي وليأتوا!

ولبس السترة الجلدية بالتمام ، حتى لا تعيقه وأخرج المسدس من الجيب . جمدت جوليا في

صمت . وانعقد حاجباها ، وظهر على وجهها ظل اصرار عنيد . نظر ايفان الى الفتاة ، ولكن لم ير ذعراً في عينيها . فقد تمالكت نفسها ، ولم يبق من الفزع الذي كان يطل قبل حين من عينيها الداكنتين الواسعتين غير حزن حتمية النهاية .

— جاءوا . دعيهم يركضون ، فسيتعبون .

سألت جوليا مندهشة ، وكأنها ادركت الآن فقط ما يهددهما :

— اطلاق نار ؟

— المسافة بعيدة . دعيهم يطلقون النار ، اذا كان عتادهم كثيرا .

وبالفعل لم يطلق الألمان النار بعد ، واكتفوا يصيحون كلمتهم «هالت !» ولكن الهاربين ظلا يصعدان بعجالة باتجاه دغل الصنوبر الى الاعلى . تغلبت جوليا على فزعها الأول ، وعادت شديدة الحركة ، سريعة ، منتبهة ، بل وبدت متأهبة لكل شيء . وقالت :

— دعهم يطلقون ! أنا لايخاف ؟ دعهم يطلقون !

واقتربت من ايفان راكضة ، متلفتة باستمرار ، وامسكت يده . ضغط على أصابعها الباردة شاكرا ، ولم يطلقها .

— ايفانو ، الفاشيون يطلقون ، نحن نطلق! لن نريد المعسكر . ها ؟ ها ؟

حرك حاجبه في انشغال بال .

– بالطبع . فقط أن لا تخافي .
– أنا لا يخاف . ايفان الروسي لايخاف . جوليا لايخاف .

ولم يكن ايفان يخاف . فان ما عاناه خلال سنوات الحرب كان يجعله لا يخاف الآن أيضا . ما ان اكتشفهما الألمان ، حتى شعر بانفراج غريب ، وتشجع في داخل نفسه . اذ لم تعد هناك حاجة الى المخاتلة ، ولايحتاج الآن الا أن يوهب قوة . وأن تبقى جوليا الى جانبه ايضا. ومنذ تلك اللحظة بدأت مبارزة في الخفة ، في الدقة ، في السرعة ، فقد كان عليهما أن يغادرا المنطقة ، ويحرصا على قوتهما ، ولايدعا الالمان يقتربون الى مسافة اطلاق النار ، ويصعدا نحو السحب التي تكلل منذ الليل على الجبال بلا حراك، وبعدها أن يفلتا من المطاردين . اذ لا مخرج آخر لهما .

– ٢٣ –

وأخيرا بلغا الدغل ، ولكنهما لم يختفيا فيه ، لأن حاجتهما الى مخبأ قد انتفت . كانت جوليا أول من صعد الى حافة الصعدة الحادة ناثرة الرمل وكسر الحجارة برجليها ، متشبثة بالاغصان الشائكة ، وتوقفت هناك . وصعد ايفان في اثرها ، وهو يرفع رجله المصابة بجهد . وعند مرتفع غاية الحدة قرب قمة صعدة كانت رجله

توجعه الى حد أنه لم يعد يعرف كيف يطأ عليها ليتسلق الصعدة . عند ذاك ركعت الفتاة على ركبتيها ومدت اليه ذراعها النحيلة الضعيفة . نظر الى العروق الزرقاء في معصمها ، وقام بآخر محاولة لأن يصعد بنفسه . فهل يعقل أنها تستطيع أن تسحبه ؟ الا أن جوليا رطنت بمزيج من الكلمات الايطالية والالمانية والروسية ، وامسكت ابطه باصرار ، واسندته ، حتى ألقى جسمه المثقل على حافة الصعدة في آخر الأمر .

– بسرعة ، ايفان ، بسرعة ! الاس اس !

وبالفعل لحق الالمان بهما ، والذين أخف حركة من بينهم قطعوا المرج ، وراحوا يرتقون المرتفع ، بينما كان الآخرون يحاولون اللحاق بهم . وكان المجنون أخرهم يتعثر وذراعاه مشدودتان خلف ظهره ، وحارسه يدفعه دفعا ، وقع بصر أحد المتقدمين على الهاربين قرب الدغل ، فأخذ يصرخ ، واطلق صلية من رشيشته. ولعلعت الطلقات في الهواء الصباحي ، وتردد الصدى ، وانداح عاليا في المضايق البعيدة . التفت ايفان ، كان الألمان مايزالون ، بالطبع ، على مسافة بعيدة نسبيا ، عند ذاك خطا من جديد ، وكاد يصطدم بجوليا التي كانت منطرحة على المنحدر .

– ماذا بك ؟

– لا شيء ! لا مصابة – قالت وهي تتلفت

وفي عينيها لمعان الفرح ، والشقاوة المغتاظة تلهب وجهها . وصاحت على الالمان بصوت حانق رنان :

— فاشيون اوغاد ! فارفليوختر ! شفاين !

قال ايفان :

— لا بأس . اتركيهم !

فقد كان عليهما أن يحرصا على مالهما من قوة ، وما الفائدة من اغاظة هؤلاء الاوغاد ؟ ولكن جوليا لم ترد أن تموت دون احتجاج ، فالحنق والمظالم المتراكمة كانا يغلبان كل حصافة .

— هتلر كبوت ! هتلر كريتينو ! هيا ، اطلقوا ، هيا !

اطلق الالمان عدة صليات أخرى ، ولكن الهاربين كانا أعلى بكثير من مطارديهما ، وفي موقع — وكان ايفان يعرف ذلك — يستحيل تقريبا الوصول اليه بنار الرشيشة ، حسب قوانين القذف . وكانت جوليا ايضا تشعر بذلك ، وأثار أنشراحها أن أية رصاصة لم تصفر حولها.

— هيا ، اطلقوا ! اطلقوا ! فاشيستو ! بريغانتي * .

احمرت من الركض والشقاوة ، وتوهجت

---

* قطاع طرق (بالايطالية) .

عيناها بنار الحقد السوداء ، وتناثر شعرها الكثيف القصير في الريح . والظاهر أنها استنفدت كل رصيدها من كلمات الشتم ، فالتقطت حجرا من عند قدميها ، لوحت به بلاحذق ، وألقته . فتدحرج بعيداً في الأسفل قافزا على الصخور .

كان ايفان أول من ترك الصعدة الى فوق . وراحا ، على نحو ما ، يتسلقان بمحاذاة الدغل ، والمرتفع يزداد حدة . اللعنة على هذه النباتات ، لطيف لو كانت هناك ، في الأسفل ، حيث كان من الممكن الاختفاء عن المطاردين ، أما الآن فان هذه النباتات لاتفتأ تضايقهما ، وتوخزهما ، وتتعلق في ملابسهما . وكان اختراقها في خط مستقيم في منتهى الفظاعة ، فقد كانت الاغصان الصلبة كالأسلاك الشائكة ، المصمغة تتشابك كثيفة . وكان ايفان من حين لآخر يلقي الى فوق نظرة هلعة باحثا عن طريق أروح ، ولكن لم يجد شيئا أفضل . وفي الاعلى كان في انتظارهما صعدة جديدة اكثر تفتتا ، فادرك ايفان أنهما غير قادرين على صعودها .

الا أن جوليا لم تر ذلك ، ولم تكن تفهم . وقد تأخرت قليلا ، في انهماكها بتبادل الشتائم مع الالمان ، وهي الآن تلحق به على عجل . قعد ايفان ومدد رجله المصابة على الصخور لاهث الانفاس .

صاحت جوليا من الأسفل مذعورة :
— ايفانو ، ريجلك ؟
لم يجبها .
— ريجلك ؟ اعطني ريجلك !
نهض صامتا ، وراح ينظر من جديد الى الصعدة في الأعلى . وجوليا أيضا نظرت الى هناك ، وتفحصت الجدار الهش ، وتوجست .
— ايفانو !
— لابأس . لنذهب .
— ايفانو !
تقلص وجهها ، وكأنما من ألم ، والتفتت . كان الألمان يتسلقون في أثرهما بسرعة .
— ايفانو ، راح نموت ! بلا تيريشكا . خلاص ، ها .
— استعجلي ! استعجلي !
صاح ايفان بحدة دون أن يرد عليها . لم يكن امامهما غير الالتجاء الى الدغل . فعض على شفته ، واندس في الحرش الذي يتحاشاه حتى الوحوش . وانغرزت على الفور مئات الأبر في قدميه ، ولكنه لم يلتفت اليها ، وحرر ركبته فقط . وتفصد جبينه عرقا باردا من الألم والجهد . واخترق الدغل بضراوة ملتفا حول الصعدة غير عابىء كثيراً بالاشواك والصخور .
— اوي ، اوي ، اوي !

هتفت جوليا في قنوط ، وانسلت وراءه ، متشربكة بالاشواك من حين لآخر ، واقعة . ولم يكن ايفان يهدئها ، ولا يستحثها ، بل كان يركز بصره على حافة الصعدة ، حيث كان من المنتظر أن يظهر الالمان .

والحقيقة أن الحظ حالف الهاربين هذه المرة . فقد وصلا الى القرب من الحافة العليا للحرش ، حين طلع أول فاشي من وراء الصعدة . انه الآن خطر ، لأن الفارق في الارتفاع بينهما وبين الألمان صار قليلا . وما ان رفع الألماني رأسه ، حتى سدد ايفان مسدسه بعجالة ، واطلق النار .

ورددت الجبال صدى حاداً .

اخطأ الهدف ، بالطبع ، فقد كانت المسافة بعيدة ، ولكن الألماني اختفى تحت الصعدة للاحتياط ، واعقبت ذلك صلية طويلة من رشيشة. انتشرت «ترررررر !» منداحة أبعد فأبعد ، وقد اطالتها الجبال . وحين تلاشى الصدى ، انطلق الهاربان مبتعدين . افزعت الالمان طلقة المسدس المباغتة ، فلم يطلع واحد منهم على المنحدر لبعض الوقت . ثم لاح من وراء الصعدة شخص مخطط الملابس ، وكانت جوليا أول من رآه .

— ايفانو ، المعتقل الألماني .

كان المجنون يتسلق الصعدة موسعا بين ساقيه ، وراح يصرخ بصوته المقطع الكريه :

— روسه ! روسه ! هالت ! فاروم دو غيست فيغ ؟ اين فولين بروت غابن *

فرد عليه ايفان بالالمانية :

— الى الوراء !

نظر المجنون مذعورا ، وتراجع . وسمع ايفان تصايح الألمان عليه من هناك ، وبعد قليل طلع جميعهم من وراء الصعدة دفعة واحدة تقريبا .

وساء الوضع . ولم تبق الا مسافة قصيرة على الحدبة التي كان الدغل ينتهي عندها ، ولكن كان في مستطاع الألمان أن يصيبوهما برشيشاتهم . وكان يجب تعويقهم مهما يكن من شيء ، والانسلال الى ماوراء الحدبة . هبط ايفان على ركبته ، ودس ماسورة المسدس في تفرع أغصان مرتخ في الحرش ، وأطلق للمرة الثانية، ثم الثالثة . ثم انحنى ، وجمد في النباتات القصيرة . وخلال ذلك لحقت به جوليا :

— ايفان ، لا كل الرصاص ! لا كل !

فهمها ، ومس كتفها النحيلة ، يريد بذلك أن يطمئنها ، سيترك طلقتين بالطبع . كان ينتظر الطلقات الجوابية ، ولكن الالمان صمتوا ، وانتشروا في الحرش ايضا في سلسلة عريضة .

---

* ياروسي ، ياروسي ! قف ! لماذا تهرب ؟ انهم يريدون ان يعطوك خبزا (بالألمانية).

عند ذاك قفز ، وقزل الى فوق باتجاه الحدبة فوق المنحدر ، حانيا قامته ليخفي نفسه ولو بعض الشيء .

والظاهر أن الألمان وقعوا في خطأ ، حين دخلوا الحرش ايضا ، وهم حذوا حذو الهاربين ، فقد كانت نباتاته لاتعيق الحركة فقط ، بل وتعيق رؤية الخصم والتسديد ايضا ، وبينما كان الالمان منشغلين فيه ، توغل ايفان وجوليا قليلا في الاعلى . وأخيرا طلعا من الحرش ، وهما يتوقعان طلقات من الخلف ، وركضا حتى الحدبة الضيقة لاهثين ، وانحدرا فيما يشبه التدحرج على منحدرها الآخر . ومن هناك ، وقبل كل شيء شمل ايفان المنطقة المجاورة بنظرته . فرأى من الجانب الآخر مرتفعا صخريا حادا كما في الخلف يرتفع تحت الغيوم الواطئة . ومن تحت قدميه تماما جرى منحدر نحو الوادي الذي كانت تبدأ وراءه ثنية جبلية جديدة غير عالية ، وهنا وهناك كانت غيوم بيض تتهادى فوق الجبال مثل قطيع من الاغنام ، وفوقها حجاب متكاثف من السحب يغطي ذرى الجبال .

وما كادا يغادران الحدبة حتى وضعت جوليا كفيها على صدرها ، وسقطت على ركبتيها ، وراحت شفتاها تهمسان بكلمات سريعة جدا . صاح ايفان بها :

– ماذا بك ؟ اسرعي !

لم تجب ، وهمست بكلمات أخرى ، فركض الى الأسفل وهو يعرج عرجا شديدا ، قفزت جوليا عجلى ، وأسرعت تلحق به .

– ستساعدنا سانتا ماريا ، مريم العذراء. أنا دعاء كثير كثير ...

اندهش عن صدق :

– دعك ! لا أحد يساعد !

انحدرا قليلا على المنحدر الى المنحفض ، وهما لا يعرفان الى اين يتجهان ، ولا يقويان على الصعود الى فوق . ما تزال الحدبة بمنحدرها الحاد تحميهما من الالمان . والنزول الى الاسفل أسهل بكثير ، حتى لكأن الجسم يندفع الى الأسفل تلقائيا ، سوى أن الركب كانت تنطوي من التعب . ظل عرج ايفان يشتد عليه . وكانت جوليا تسبقه ، ولكنها لا تبتعد كثيرا ، وغالبا ماتتلفت . والظاهر أن افلاتهما وهما على مقربة دانية من الالمان أثار في الفتاة حماسا لايكبح . ظلت تلتفت الى ايفان مشاكسة وراحت تتمتم بأمل وفرح :

– ايفان سنعيش ! نعيش ، ايفانو ! أنا يريد كثير يعيش . برافوا ، عاش !

وفكر ايفان ، وهو يتلفت اثناء جريه «لا تفرحي ، لا تفرحي قبل الأوان !» وفي اللحظة

التالية رأى الفاشي الأول فوق الحدبة . طلع من وراء الصخر بصعوبة طويل القامة يلبس بنطلون ركوب ضيقا . وسترته محلولة ، يلوح تحتها قميص أبيض على صدره . انه لم يستعجل في اطلاق النار رغم أنهما ، ليسا بعيدين جدا عنه ، والى الاسفل منه كثيرا . نظر اليهما لحظة ، وهو واقف في مكانه ، ثم صاح بشيء على الآخرين الذين كانوا يقتربون من الاسفل ، كما يبدو ، وقهقه . ظل يضحك ضحكة طويلة ، وصاح بشيء في اثر الهاربين . وبعد ذلك ، وبدلا من أن يركض للحاق بهما جلس على صخرة وخلع السدارة عن رأسه .

وثبت جوليا نحو ايفان ، وغمغمت له :

— ايفانو ، ايفانو ، انظر . فاشي نبيل ! تركنا نذهب ! ترك ، انظر .

ولم يستطع ايفان ان يفهم لماذا لم يطلقوا النار عليهما ولم يتعقبوهما ، ولماذا كانوا يتركونهما ، ويتوقفون جميعا على الحدبة . ابتعد أحدهم جانبا ، وصاح ملوحا بالبندقية :

— شنيلر ! شنيلر ! ابتعد بسرعة .

— ايفانو ، رجال الاس اس تركونا ! -- غمغمت جوليا وقد أججها الفرح فجأة — سنعيش ! نعيش !

التزم ايفان الصمت .

«أية مصيبة ؟ علام نووا ؟» وكان كل ذلك

يبدو له غريبا بالفعل ؟ ولكن ايفان كان واثقا من أن وراء الاكمة ماوراءها ، وأن رجال الأس اس لم يتخلوا عن المطاردة لطيبتهم ، وأنهم يهيئون لشيء اسوأ .

ولكن ما هو ؟

وصل ايفان وجوليا الى قعر المنخفض ، واخترقا نبات الرودندرون الى جانبه الآخر — وهو منحدر ليس بحاد ولا عال — وصعدا الى فوق منهكين ، وقد قرحت حبات الرمل الكبيرة واشواك الاعشاب الواطئة أقدامهما اخيرا . ولكنهما لا يشعران الآن بخشونة الأرض . وكانت جوليا تركض الى الامام تارة ، وتستدير أخرى لتلتفت الى الالمان . وكان فرحها يزداد بقدر ابتعادهما عن الحدبة . الا أن هيئة ايفان الجزعة القلقة ماكان من الممكن الا تثير انتباهها أخيرا . سألت قلقة :

— ايفانو ، لماذا مخموم ؟ ريجلك ؟

— ليس رجلي ...

— ولماذا ؟ سنعيش ، ايفان ، تخلصنا ...

يظهر أنه حدس حقيقة الأمر . لم يجبها واسرع يقزل على مرتفع كان يلتوى بعد ذلك منحدرا الى الاسفل بشدة . كان يحجبهما عن الالمان ، وهذا شيء جيد ، ولكن ... حين كانا يخرجان من وراء المرتفع كانت جوليا في اغلب

الظن قد حدست شيئا ما ايضا ، فتوقفت . كانت الجبال تنفرج الى الامام ، ولاح في طريق الهاربين فضاء رحب من الهواء الازرق ، وفي الاسفل مضيق موحش كان الضباب يتصاعد منه نحو السماء متلويا .

ركضا حتى نهاية الحيد الجبلي صامتين وقد جمد قلباهما فجأة ، وعند الحافة تراجعا . فقد رأيا الحيد ينقطع فجأة ليصير هاوية مضببة كانت بقع الثلج الشتائي الذي لم يذب بعد تلوح فيها رمادية في بعض الاماكن .

— ٢٤ —

استلقت جوليا على افريز صخري يبعد خمس خطوات عن القطع ، وراحت تبكي . ولم يكن ايفان يهدئها ، ولا يسري عنها ، بل كان يجلس الى جانبها يسند يديه على صخور مطحلبة ويفكر بأن كل شيء قد أنتهى ، على ما يبدو . كان القطع يحدق بهما من أمام ومن أحد الجانبين ، ومن الجانب الآخر يبدأ مرتفع صخري آخر يشمخ تحت السحب . ومن الخلف كان الالمان يجلسون على الحدبة . يعني انهما وقعا في مصيدة فاخرة ولا أحسن منها ! وكان ذلك بالنسبة لجوليا مباغتة تامة ، ومؤلمة بعد ومضة

الأمل في النجاة تلك التي التمعت في نفسها فجأة ، وايفان لا يخفف عنها الآن ، اذ لا يجد الكلمات لذلك .

كانت الهاوية تنفث رطوبة رذاذية ، وقد بدأ جسداهما الملتهبان يفقدان حرارتهما بسرعة، وحولهما كانت الريح تعول وتطن في الصخور ، وكأنما تنفخ في ابواق جبارة ، وكان الجو غائما ومقبضا . ولكن لماذا لا يتقدم الالمان ، ولايطلقون النار ، وظلوا يتزاحمون على الحدبة في الاعلى بين جالس وواقف وقد احاطوا المجنون بثيابه المخططة ؟ امعن ايفان النظر ، وفهم . لقد كانوا يتسلون . يمصون سكائرهم ويغرزون رؤوسها في جبين المعتقل الالماني ورقبته وظهره ، وكان هذا يدور بينهم كالمغزل ويداه موثقتان ، ويبصق ويرفس ، بينما هم يصهلون حين كانوا يلذعونه بسكائرهم .

ترامى من هناك صوت المجنون الناحل :

– روسه ! انقذ ! روسه !

ركز ايفان انتباهه : عن أي شيء تفتقت اذهان هؤلاء الاوغاد ايضاً ؟ لماذا هم قساة لا انسانيون نحو ابناء وطنهم ونحو الآخرين ، نحو كل شيء ؟ أمعقول أن ذلك مجرد وضاعة نفس ، وللتسلية ؟

يبدو أن الالمان كانوا ينتظرون شيئا ، ولكن ما هو ؟ ربما نجدة ؟ ولكن لا شيء يخيف الآن .

انها النهاية المحتومة الآن ، فينيتا ، كما كانت جوليا تقول . والظاهر أن هروبه الرابع سيكون الأخير . خسارة فقط هذه الاعجوبة الانسانية الصغيرة ، هذه الفتاة السوداء العينين ، الكثيرة الكلام، التي كانت سعادتها نشوة عابرة، طيفا، ولو أن ايفان كان شديد الامتنان للمصادفة التي بعثت له هذه الفتاة في آخر ساعات حياته واعلقها في الذاكرة . فان الموت الى جانبها ، بعد كل ما حدث ، ومهما يكن في ذلك من غرابة ، سيكون اخف مما في الموت في موقد الحرق الجشع .

يبدو أن جوليا أخذت كفايتها من البكاء ولم تعد كفاها تهتزان ، سوى أنهما كانتا ترتجفان من البرد من حين لآخر . خلع ايفان السترة عنه ، وسد جذعه نحو الفتاة ، وغطاها بحرص . ارتعشت جوليا ، وغالبت نفسها ، وجلست ، وأخذت تمسح عينيها الباكيتين بقبضتيها المبقعتين المخدشتين .

– سيىء ، ايفانو . اوي – اوي ، سيىء !..

– لا بأس ، لاتخافي : توجد هنا طلقتان .

واشار الى المسدس ، فقالت في يأس :

– جوليا بائسة . هذه نهاية الحياة .

كان يجلس على الأرض ساكنا ، يراقب الالمان بلا انقطاع ، وقد تفجرت اعماقه كلها من

المصيبة والعجز . فقد كان يشعر امام ضميره بالمسؤولية على مصير هذه الفتاة ولكن ماذا كان في وسعه أن يفعل ؟ ليت هذا القطع كان أقل مناعة ، ولكن هذا الطنف اللعين المدلى على الهاوية يليه طنف آخر، والقاع لا يرى في الضباب المعتم ، بل ولا يسمع ضجيج السيل . ثم هذه رجله أيضا ، وهل في امكانه لا يثبت . على مثل هذا المنحدر الشديد ؟ وكل هذا مجتمعا قد حدد نهايتهما المحتومة .

تناهى صوت المجنون ضعيفا من الحدبة :

– روسه ، أنقذ ، روسه !

رأت جوليا الألمان على الحدبة فوقفت على ركبتيها ، ولوحت بقبضتيها الصغيرتين وصاحت بخليط من الايطالية والالمانية والروسية :

فاشيستو ! بريغانتي ! اوغاد ! خذونا ! ها؟

صمت الذين على الحدبة ، وسكنوا ، وبعد قليل حملت الريح من هناك صوتا خنقته المسافة:

– هاي، يا روسي ويا عاهرة! سنقتلكما!..

واعقبه صوت ثان :

– يا أسير ! أترك الجبل البارد ، شباتسيرين ، محرقة الجثث الساخنة !..

والهب الحنق الضاري وجه جوليا من جديد وقالت بالالمانية ملوحة بقبضتيها :

– خذوا ! خذوا ! تعالوا خذونا ! ها ، تخافون ؟

سمع الالمان الكلمات التي تطايرت اليهم من خلال الريح ، وأخذوا واحدا بعد الآخر يصرخون بكلمات مشينة . فلم يكن لجوليا الا أن تعض شفتيها لحنقها على عدم قدرتها على الرد عليهم في مثل هذه المناوشة . عندئذ أمسكها ايفان من كتفيها وضمها اليه . فاتكأت على صدره طائعة ، وانشأت تبكي كالطفلة يأسا وانقطاعا .

فراح يهدئها ايفان بحراجة كاتما في نفسه سورة من اليأس الحانق :

– لا داعي ! لا داعي . لا شيء .

وبعد قليل هدأت جوليا ، وظل يحتضنها وقتاً طويلا ، مفكراً بمرارة كيف بدأ كل شيء بداية طيبة ، وكيف ينتهي هذه النهاية السخيفة. اغلب الظن أنه فاشل اطلاقا ، واتعس حظا من بين كل الناس ، فهو لم يستطع أن يستفيد من هذه الفرصة المؤاتية للنجاة . لو كان في مكانه غولوداي ويانوشكا وآخرون لكان حظهم من التوفيق اكبر بكثير ، ولوصلوا الى تريسته وقتلوا الفاشيين . بينما انحصر هو هنا ، في هذه الجبال الملعونة ، وعلاوة على ذلك سمح في أن يوقع في شرك كالذئب . وكان عليه أن يفجر القنبلة ، كما يبدو ، ويتيح للآخرين ان يهربوا والا فهذه هي النتيجة ... وعلاوة على ذلك

سببت في هلاك جوليا التي وثقت بك ، وركضت وراءك ، واحبتك ... ها أنت حققت آمالها !

ضم الى صدره وجهها الدامع ، شاعرا بغموض ، ومن خلال ألمه ، بارتجاف يديها على كتفيه . وهذا بالاضافة الى اليأس كان يثير في نفسه ، كالسابق ، حنانا نحوها لا يوصف .

وبعد ذلك جلست جوليا الى جانبه ، وعدلت بيدها شعرها المبعثر بالريح .

– قصير ، قصير شعري . لا عندي شعر كثير . أبدا لا !

ومن حرقته اكتفى بزم شفتيه . ان عقله لم يستطع قط أن يتقبل حتمية الموت . ولكن ما العمل ؟ ما العمل ؟

وهتفت جوليا ، وقد شاعت فيها حيوية مفاجئة :

– ايفانو . تعال نأكل خوبز . خوبز !

واخرجت من جيبها بقية الخبز ، وكسرتها الى نصفين ، وقد شع فرح مفاجىء في عينيها الواسعتين .

– هاك ، ايفانو .

تناول ايفان القطعة الكبيرة ، ولم يعمد في هذه المرة الى التقسيم والمناصفة ، فان ذلك لم يعد له معنى الآن . وصارا يبتلعان ويتلذذان بالخبز ، البقية الباقية من احتياطهما الذي أدخراه لجبل الدب . وفي هذه اللحظة ايضا غمرت

ايفان موجة جديدة من الاحساس بحتمية النهاية . والغريب أن الأمل الأخير في البقاء اختفى مع هذه القطعة من الخبز ، فانهما بأكلهما لها ، كأنما قد صفيا كل همومهما الحياتية ، ولم يبق لهما الآن غير شيء واحد ، وهو قضاء اللحظات المتبقية القليلة ، والموت . تملكت ايفان اللوعة مرة أخرى من التفكير باضاعة كل تلك الجهود عبثا ، وفي مثل هذا الوقت ! فان المقاتلين في الشرق قد حرروا ارض موطنه ، واجتازوا حدود الاتحاد السوفيتي ، وهم الآن قادمون الى هنا ، بينما هو لن يلتقي بهم ، رغم نزوعه الى هذا اللقاء .

كانت جوليا تلقي نظرات مفعمة باليأس على المضايق الموحشة ، وتنظر من حين لآخر ، الى أولئك الذين يجلسون في الاعلى ولا يبرحون ، حارسين طريقهما .

— ايفانو ! اين الله ؟ أين مادونا ؟ أين العدالة ؟ لماذا لا ينزل العقاب بالفاشيين ؟ — راحت تسأل ، وهي تدعك يديه النحيلتين السمراوين قهرا .

صاح ايفان وكأنه ثاب الى نفسه :

— توجد عدالة ! سيعاقبونهم ! سيكون ذلك !

— اين العقاب ؟ أين ؟ الانجليز ؟ الامريكان؟ سوفيت يونيون ؟

– طبعا ! الاتحاد السوفيتي . سيكسر أنوف هؤلاء الاوغاد .

– سوفيت يونيون ؟

– نعم ، بالطبع .

تفرست جوليا فيه ، وفي عينيها أمل جديد :

– يعني جيد ؟ أحسن ، أحسن الجميع ؟

– لم يفهم ايفان ، فسأل :

– ماذا ؟

– روسيا جيد ؟ عادل ؟ نبيل ؟ ايفان أمس قال صحيح . ها ؟

وفجأة بدا وكأنه يرى في ضوء جديد ، هذه الفتاة ونفسه ، ووطنه البعيد وبشكل مختلف عما كان بالنسبة له طوال حياته ، وما كان من الممكن ان يكون .

فقال بصلابة :

– نعم . روسيا بلاد رائعة جميلة عادلة . ولا أحسن منها ! وستكون احسن ! بعد الحرب ! حين سنسحق هتلر . سترين ... آه ، لو شهدنا يوما وحدا ! يوما واحدا فقط !..

واقتلع ايفان من الصخر نبتة أشنة قوية بفورة لا تكبح . ولم يعد قادرا على أن يقول اكثر ، وقد غمرته موجة كاسحة من الحب اللاهب نحو وطنه البعيد ، شاعرا بأنه على وشك أن يبكي ، وهو ما لم يحصل له من قبل . والظاهر

أن جوليا ادركت ذلك فمست ركبته بحنان . وقالت والدمع يكاد يطفر من عينيها ، وان كانت الابتسامة المشرقة تلوح على وجهها :

— أنا يعرف . أنا يعرف . أنا يصدق بك . تصورت قليل ايفان لا يقول صحيح . أنا غلطان ...

وبدا وكأنها انتعشت فجأة . وكان الجو بارداً ، وريح نافذة تهب من المضيق ، وهي ملتحفة بطرفي سترتها . وقدماها الحمراوان المدميتان وحدهما كانتا تتجمدان على الصخر ، اذ لم يكن هناك ما تحتميان به . وفجأة وقفت على ركبتيها ، وكأنها تذكرت شيئا ، وغنت بعفوية ، ودون أية تمهيد مقطعا من اغنية «كاتيوشا» الروسية ، ناطقة اياها بتحريف .

واندهش ايفان . فقد بدت له الاغنية غير مناسبة على حافة هذا القبر . ولكنه رأى الالمان يجمدون على الحدبة ، فانضم معها الى الغناء .

والظاهر أن الاغنية ادهشت الألمان ، فأخذوا يصرخون بشيء . ولم يسمع ايفان صيحاتهم ، وأنغمر في اللحن البسيط لهذه الاغنية التي انتزعتهما فجأة من حالة الحكم بالموت ، وحملتهما الى عالم آخر انساني مشرق على نحو لا يوصف .

الا أن اندهاش الألمان بجسارتهما لم يستمر طويلا ، فان أحدهم سرعان ما التقط رشيشة ، وأطلق صلية . وفي هذه المرة أثار

الرصاص بارتطامه بالصخر هنا وهناك سحبا سريعة من الدخان ولكن الريح سرعان مابددتها . جذب ايفان جوليا من ذيل سترتها ، فانحنت من دون رغبة ، وأخفت رأسها وراء صخرة . وفكر ايفان في سره : «اطلقوا ، يا اوغاد ، اطلقوا ، وليسمعوا» وهو يقصد بذلك المعسكر الذي كانوا يتسمعون فيه دائما الى كل طلقة في الجبال «ليسمعوا أننا ما نزال أحياء !»

استلقيا في الحاجز الصخري بضع دقائق ، حتى تلاشى صدى الصليات فوق المضيق . في هذه المرة أيضا نادرا ماكانت الطلقات تصل الى مكانهما ، فان الالمان بذلك كانوا يرمون الى التخويف اكثر ، محاولين ابقاء الهاربين في خوف وخضوع . ثم صمتت الرشيشات ، وانداح الصدى بعيدا ، وماكاد يتلاشى حتى ترامت من جهة المرج اصوات جديدة مألوفة . دفعت جوليا رأسها الى الوراء ، وأرادت أن تقول شيئا ، ولكن ايفان أوقفها بايماءة ، وأخذا يتسمعان ، ويتبادلان النظرات المتوترة . وراح ايفان يشتم بفظاظة غير محتفل بوجود جوليا الى جانبه ، فقد سمع نباح كلاب وراء الحدبة .

وفجأة انفجر في نفس ايفان الغيظ المكبوت منذ وقت طويل ، فنهض على رجلين منفرجتين مهتاجا رهيبا ، وصاح على الالمان :

— وحوش ! وحوش ! انتم انفسكم

خائفون . فتستقدمون مساعدين ! ومع ذلك لن تظفروا بنا ! هذا لكم ! فهمتم ؟

كان من السهل عليهم بالطبع أن يطلقوا النار عليه ويقتلوه ، ولكنهم لم يطلقوها . يبدو أنهم حاولوا أن يفهموا ما يصرخ به هذا الهارب . وأعترت ايفان قشعريرة ، واهتز بكل كيانه من الهياج العصبي ، وأخذت الحمى تجتاحه . تلفت فيما حوله فرأى السماء قد صحت قليلا في الاعلى ، ومن فرجة بين السحب لاحت رقع سماوية زرقاء تلمع في اشعة الصباح . وبدا وكأن جبل الدب الذي لم يصلا اليه يوشك على الطلوع من السحب ، وكان يود كثيراً لو يراه ويرى الشمس ، ولكنهما لم يطلعا ، وقد أشعره ذلك بمرارة لا تحتمل .

تهاوى ايفان على الأرض ، والذي كان لا بد أن يقع وشيكا لم يعد يهمه ، فقد كان يعرف كل شيء مسبقا . بل والتفت حين ظهرت الكلاب على الحدبة . كانت كلاب تتعقبهما في اثرهما ، وقد هيجتهما المطاردة . اندفعت جوليا نحو ايفان فجأة ، وانكمشت عليه ، وغطت وجهها بيديها .

— لا أريد كلاب ! لا أريد كلاب ! ايفانو ، أطلق ! بسرعة !.. أطلق ...

واختفى على الفور الغيظ والذهول الذي اصابه في البداية ، وصار هادئا من جديد . ان من السهل قتل نفسه ، وما اصعبه أن يفعل نفس

الشيء مع جوليا ، ولكن يجب أن يفعل ذلك . اذ لا يجوز ترك رجال الاس اس يأخذونهما حيين ، ويعودون بهما الى المعسكر ليشنقوهما هناك . الافضل أن يجروهما ميتين ! فما داما لم يوفقا في الانفلات من الاسر فعليهما على الاقل أن يسببا لهم الازعاج بموتهما .

وخلال ذلك أطلق الالمان الكلاب .

اندفع على المنحدر كلب ، كلبان ، ثلاثة ، اربعة ، خمسة كلاب مرقطة محلولة من مقاودها ، مسطحة على المرج ، وركض الالمان وراءها . وحين ادرك ايفان أنها على وشك الوصول قفز ، وأمسك يد جوليا ، فارتمت هذه على رقبته ، وانفجرت باكية . وشعر بان عليه أن يقول شيئا . لقد انطوى قلبه على الاهم والاقوى على البقاء ، ولكن الكلمات قد اختفت لسبب لا يعرفه ، بينما صارت الكلاب تعدو على المنخفض الآن . عندئذ انتزع جوليا عنه ، ودفعها الى القطع — الى حافة الهوة تماما . ولم تقاوم جوليا ، سوى أنها انتحبت انتحابا خافتا ، وكأنها تشهق ، واتسعت عيناها كثيرا ، ولكن بدون دموع ، سوى أن الفزع جمد عليهما ، ومعه صيحة كتمها الذعر .

من حافة الهوة ألقى ايفان نظرة على اعماق المضيق ، فرآها مظلمة رطبة باردة ، كما كانت . الا أن الضباب قد شف هناك ولاحت رقع الثلج في الهوة ناصعة البياض . وكانت احداها

تصعد الى فوق كلسان ضيق طويل ، وفجأة لمعت في خاطره الفكرة – الأمل المحفوفة بالمخاطر . وخشي ألا يسعفه الوقت ، فلا يستطيع أن يقول شيئا لجوليا ، فانزل المسدس الذي كان قد شهره بالفعل ، ودفع الفتاة الى حافة الهوة تماما .

– اقفزي !

تراجعت الفتاة مذعورة . فصاح مرة أخرى «اقفزي على الثلج !» الا أنها تراجعت مرة أخرى بكل جسمها ، وغطت وجهها بيديها .

وخلال ذلك قفزت الكلاب على البروز الصخري . وقد أحس ايفان ذلك من نباحها الذي ارتفع عاليا وراء ظهره . عند ذاك دس المسدس في اسنانه ، وقفز نحو الفتاة . وأمسكها من ياقتها وسروالها بقوة ضارية مفاجئة ، وقذفها الى الهاوية بهياج ورجلاها الى الامام ، كما تصور هو نفسه . واستطاع في اللحظة الأخيرة أن يلمح جسدها المسطح في الهواء يطير فوق القطع ، ولكن لم يلحظ هل سقط على الثلج . الا أنه ادرك أنه غير قادر على القفز هذه القفزة ، برجله المصابة .

نبحت الكلاب بشراسة ، حين رأته هناك ، ولكن ايفان تراجع عن حافة القطع خطوتين . كان يتقدم الكلاب كلب ذئبوي ضامر عريض الصدر ذو أذن واحدة انطلق نحوه ، وراح يقفز على

الصخور ، وشب على مقربة شديدة منه . ولم يسدد ايفان ، ولكنه اطلق النار على شدقه المفتوح بما تبقى في مستطاعه من العناية المتراخية غير الانسانية تقريبا ، ولم يصطبر ، فاطلق الرصاصة الأخرى رأسا على الكلب التالي . فرأى الكلب ذا الاذن الواحدة يمر به مندفعا نحو الهاوية لا يلوي على شيء . أما الثاني فلم يكن لوحده فقد كان يركض معه كلبان آخران ، ولم يستطع ايفان أن يرى هل أصابه أم اخطأ الهدف .

فقد قطعت حيرته ضربة ضارية في صدره ، ومزق حنجرته ألم لا يطاق ، وللحظة ومضت في عينيه سماء كالحة ، وانطفأ كل شيء الى الابد .

بدل الخاتمة

«مرحبا يا أهل ايفان ، مرحبا يا من تعرفونه، مرحبا يا قرية تيريشكا عند البحيرتين الزرقاوين في بيلوروسيا .

تكتب اليكم جوليا نوفيلي من روما ، وترجو ألا تندهشوا من أن سينورا لا تعرفونها تكتب عن واحد من أهاليكم ، وتعرف قرية تيريشكا عند البحيرتين الزرقاوين في بيلوروسيا ، وتجد الفرصة اليوم ، بعد سنين عديدة من البحث ، لترسل لكم هذه الرسالة .

أنتم لم تنسوا بالطبع ذلك الزمن الرهيب في العالم ، تلك الليلة السوداء على الانسانية ، حين كان آلاف من الناس يموتون والكمد في قلوبهم . كان بعضهم ، وهو يفارق الحياة ، يعتبر الموت خلاصا ناجعا من العذابات التي أنزلتها به الفاشية . فقد كان هذا يمده بالقوة على ملاقاة الأجل بكرامة ، دون أن يشين ضميره . والبعض الآخر جعل الموت نفسه يركع في مواجهتهم البطولية له .

ضاربين للانسانية مثلا رفيعا في الشجاعة ، وماتوا مذهلين حتى اعداءهم الذين لم يشعرهم انتصارهم بالارتياح ، لان انتصارهم هذا كان نسبيا للغاية .

ومن عداد هؤلاء الرجال كان ابن قريتكم ايفان تيريشكا الذي قادتني مشيئة الرب اليه في الطرق الشاقة للنضال المظفر والخسائر الفادحة . لقد كان علي أن أصحبه في الأيام الثلاثة الأخيرة من حياته ، ثلاثة أيام جبارة من الهروب والحب والسعادة التي لا توصف . ولم يشأ القدر أن أشاطره الموت ايضا ، فان القسمة أو كومة ثلج لم تذب بعد على منحدر الجبل حالت دون تحطمي في الهاوية . وبعد ذلك التقطني ناس طيبون ، وادفأوني ، وانقذوني . وقد حدث ذلك فيما بعد بالطبع ، ولكنني في تلك اللحظة، بعد سقوطي في الهاوية ، وحين فتحت عيني ، وادركت أنني ما ازال على قيد الحياة ، وأن ايفانو قد فارقها ، فقد سكن نباح الكلاب هناك في الاعلى ، قرب السحب ، ولم يبق الا صدى طلقتيه الأخيرتين يتردد في المضيق مبتعدا .

وفي البداية ، حين أخذت أعود الى الحياة بالتدريج ، بدت لي بلا أي معنى بدونه ، وظلت الايام الحزينة والسعيدة التي قضيتها معه الشيء الوحيد الذي يملأ شهور وحدتي الطويلة . وكان

بودي أن اكتب لكم أي انسان هو ، ولكنني اعتقد أنكم تعرفونه أحسن مني . اريد فقط أن اخبركم أن كل حياتي التي اعقبت ذلك كانت مرتبطة به ، ارتباطا وثيقا ، وكذلك نشاطي المتواضع في اتحاد النضال من أجل السلام ، وفي اصدار جريدة نقابية ، وأخيرا ، في تربية ابني جيفانى الذي بلغ الثامنة عشرة من عمره ، ويستعد ليكون صحفيا . (بالمناسبة هو الذي ترجم رسالتي الى اللغة الروسية ، رغم أنني درست لغتكم ، ولكن ليس بالقدر الذي بلغه ابني من الكمال) وما تزال معلقة في حجرتي خارطة بيلوروسيا ، البلد الذي أحبه ايفان بحرارة . من المؤسف فقط انني لا املك صورة فوتوغرافية لايفان . مهما تكن ، تمثله وهو طفل، أو صبي ، أو جندي ، وهذا افضل ...!

أحيانا ، حين اتذكر ايفانو ، ارتجف حين أفكر في أنه كان من الممكن ألا ألتقى به ، وأن اكون في معسكر آخر ، وألا أراه مشتبكا مع آمر المعسكر ، وألا أهرب وراءه بعد ذلك الانفجار الرهيب . ولكن ذلك لم يحصل ، والآن اشكر العناية الالهية ، وأشكر المحن التي كانت من نصيبي ، واشكر المصادفة التي ربطتني به .

وهذا كل شيء . الختام . فينيتا .
شكرا للجميع – للذين انجبوا ، وربوا وعرفوا رجلا روسيا اصيلا في الطيبة ، أهلا للاعجاب بشجاعته . لاتنسوه !
شكرا ، شكرا على كل شيء .
مع احتراماتي

جوليا نوفيلي
من روما»
١٩٦٣

الى القراء

ان دار «رادوغا» – فرع طشقند – تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وأبديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته وشكل عرضه وطباعته واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : المركز ١٤ ، العمارة ٣٣ .
طشقند – الاتحاد السوفيتي .

تعلن دار «رادوغا» للنشر فرع طشقند لقراءها الافاضل ، بأنه لاتزال في مخازنها كتب لاساطين الادب السوفيتي مثل «المؤلفات المختارة» في اربعة مجلدات لميخائيل شولوخوف ، روائي القرن العشرين البارز . رواية «دوبروفسكي» للشاعر الروسي الكلاسيكي العظيم الكسندر بوشكين . واليكم قائمة بعناوين الكتب الموجودة :

عنوان الكتاب	المؤلف	تاريخ الاصدار
الدم المقدس	ايبيك	١٩٨٧
اباى	مختار عويضوف	١٩٨٤
قصص	دوستيان	١٩٨٧
ارى الشمس	دومبادزه	١٩٨٧
قصص	ليسكوف	١٩٨٤
كان هذا في ضواحي روفنا	ميدفيدف	١٩٨٨
دوبروفسكي	الكساندر بوشكين	١٩٨٨
الصحراء	عمربيكوف	١٩٨٨
مجموعة قصص	الكسي تولستوى	١٩٨٨
المختارات	ميخائيل شولوخوف	١٩٨٨
مذكرات طيار	تشيرنيخ	١٩٨٥

يتذكر فاسيل بيكوف قصة موضوع روايته : «انشودة الالب» قائلا: «في ربيع العام ١٩٤٥ التقيت في بلدة من الالب النمساوي بفتاة نحيلة سوداء العينين من نابولي. كانت جوليا ، وهو اسم الفتاة ، تحدق في طابور جنود فوجنا للمدفعية وتبحث «صاحبها» ايفان ، المعتقل السابق مثلها ، والذي شقت معه الطريق الى جبال الالب ...» وقد علقت هذه الواقعة من وقائع الجبهة في ذاكرة المدفعي الشاب الذي صار بعد ذلك أحد مشاهير الكتاب السوفييت ، وحاز على جائزة لينين ، وجائزة الدولة ، ولقب كاتب الشعب لبيلوروسيا .

وقصة الحب الرائعة المريرة بين جوليا وايفان، والتي يرويها فاسيل بيكوف ، تعيد الى اذهان القراء ما يجب أن يكون عليه الانسان ، تعيد الى اذهانهم كرامته وحقه في السعادة ، والمبادىء الخلقية التي يجب أن نخلص لها في كل الظروف.



ISBN 5-05-002011-5